سحب وتعديل علاء عبـــريك هنيدي

ذاكرة الشعوب

١٩

صنبين عثمان

الحوالة

ترجمة:
سعدي يوسف

مؤسسة الأبحاث العربية

صنبين عثمان

الحوالة

ترجمة : سعدي يوسف

١٩

مؤسسة الأبحاث العربية

* صنبين عثمان: الحوالة
* الطبعة العربية الأولى ١٩٨٥.
* جميع الحقوق محفوظة
* الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.

ص. ب ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان

هاتف ٨١٠٠٥٥/٦ تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان.

* تصميم الغلاف: نجاح طاهر.

* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة لرواية:

SEMBENE OOSMANE LE MENDAT

مقدمة
كيف ترسم الرواية وجه أفريقيا

الرواية الإفريقية الجديدة، تكتب بلغات غير إفريقية (الإنجليزية، الفرنسية، البرتغالية. . . الخ)، وباستثناء الشمال الإفريقي العربي، لا توجد أي تقاليد لرواية ترفد النتاج الجديد، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن التراث الشفاهي (المحكي) هو الرافد الوحيد الذي يمكن أن يستقي منه المبدع الإفريقي ـ في غير الشمال العربي ـ ما يصل بين الأزمنة. إن هذا الرافد قد يفيد الشعر، بل إنه ليفيده فعلاً، إذ إن معظم التراث الشفاهي يتخذ شكلاً شعرياً لصيقاً بالأغنية والرقصة، لكن ماذا يأخذ الروائي من هذا الشكل؟

هكذا تعيّن على روائي إفريقيا السوداء أن يلتفت إلى خارج القارة في التقاط الشكل، والمهارة، والصنعة، وتعين عليه أيضاً (لأسباب تاريخية ـ ثقافية ـ اجتماعية) أن يستخدم لغات غير إفريقية. من هنا وجد هذا الروائي نفسه إزاء أكثر الأنواع الأدبية رسوخاً في أوربا: الرواية. ولأنه يكتب بلغات أوربية، ويتعامل (في الغالب) مع دور نشر ومؤسسات ثقافية أوربية، كان عليه أن يقطع طريقاً شاقاً، أولاً لكي يبلغ المستوى الفني اللازم، وثانياً لكي تمر بضاعته عبر كل تلك النقاط الأوربية ذات التدقيق الشديد.

إن الرواية الإفريقية الجديدة التي أعلنت ولادتها المشهودة مع نشر غينوا إتشيبي النايجيري روايته «الأشياء تتداعى» ستظل ـ شأن الرواية في أميركا

اللاتينية ـ تشغل الناس ـ «النقاد» وتوجه انتباههم إلى تلك المصائر الإنسانية المتفردة بألوان إفريقيا، وحركتها، وحراراتها، ووجوه أهلها.

لكن وجه إفريقيا الذي تقدمه الرواية، ليس بهذا الوضوح المتصور، كما أن زاوية النظر إلى هذا الوجه تختلف من كاتب إلى آخر. وقد يتبدى هذا الاختلاف أكثر ما يتبدى في الرواية الكينية الجديدة.

وربما كان من النافع متابعة هذا الاختلاف، فعلاً، عبر روايتين من كينيا تصلحان ميداناً للتطبيق.

الرواية الأولى هي «تويجات الدم» Petals of Blood لـ «نغوجي واثيونغو»، والرواية الثانية هي قادة المستقبل The Future Leaders لـ «موانغي روهيني».

●

يتناول نغوجي في «تويجات الدم» بلدة «الموروغ» التي تعاني الجفاف، مما يدفع وفداً من أهلها إلى القيام بمسيرة صعبة إلى نايروبي العاصمة كي يعرضوا مطاليبهم على نائب البلدة المقيم هناك.

وفي هذا الوفد أربعة أشخاص تشابكت علائقهم مع بعضهم، ومع الناس إلى حد مثير. إنهم «منيرا» مدير المدرسة، و «وانجا» فتاة المشرب الجذابة، و «كاريغا» المتمرد دائماً، والذي تحول من معلم إلى نقابي، و «عبدالله» صاحب الدكان ذو الماضي البطولي باعتباره مقاتلاً فدائياً في صفوف الماوماو من أجل استقلال كينيا.

في نايروبي يصطدمون بعقبات عديدة أولها نائبهم، ويقدمون إلى المحاكمة بتهمة الشغب، لكن محامياً تقدمياً يتمكن من إقناع المحكمة ببراءتهم، وقد تلقفت الصحف قصتهم، ونشرت لهم صوراً وهم ضائعون في غابة المدينة ذات السيارات والعمارات والشوارع المكتظة.

وبعد شهر كامل من العودة الظافرة إلى بلدتهم «الموروغ»، يدخل

الـ... مدمنو المشارب والمآرب: رجال كنيسة أقاموا العبادة ... وعدوا بكنيسة للمنطقة. وموظفون حكوميون قالوا إن المنطقة ... إلى ضابط منطقة خاص بها ـ فهي بعيدة جداً عن «روا ـ إيني» ... الإدارة الفعالة ـ كما وعدوا بكتابة تقرير يوصون فيه بتشكيل لجنة ... الصلاحيات لتدرس حاجات التنمية هناك. منظمات إحسان ... الجامعة الذين كتبوا، فيما بعد، تقريراً يرجع الجفاف ... إلى الاستعمار الجديد، ويدعو إلى إلغاء سريع للرأسمالية، ... التقرير باسم «لجنة الطلبة ضد الاستعمار الجديد».

إن نغوجي واثيونغو لا ينخدع ببريق الاستقلال، فهو يبحث في طبيعة ... الحاكمة «هذه القلة التي ... البلاد كلها وقدمتها إلى الأجانب ... الاستغلال، هذه القلة ستظل تشرب دم الشعب، وتقول صلوات ... من الإخلاص لتوحد لون البشرة والوطنية. هذا النظام وآلهته ... يجب أن يكافحه الشغيلة جميعاً، بوعي، وإصرار، وحزم. كان ... بمساعدة العمال وصغار الكسبة والملاكين، هم الذين كشفوا ... غداً... العمال والفلاحون هم يقودون النضال، ويستولون على ... ليقاتلوا النظام بكل آلهته المفترسة المتعطشة للدم، وملائكته ... ويضعوا نهاية لتحكم القلة في الكثرة، ولعهد شرب الدم، وأكل ... آنذاك، آنذاك فقط، يبدأ حقاً ملكوت الرجال ... الذين يفرحون ويحبون في عملهم الخلاق...».

إن كاريغا ـ الطالب المفصول، ثم المعلم، ثم البائع الجوال، ثم القائد ... هو الوجه الجديد لإفريقيا.

... حدث أول إضراب عمالي في «الموروغ»، وسارعت إدارة معامل ... إلى طرد كاريغا، لكنه اكتسب بطرده، شعبية واسعة، وانتخب على ... سكرتيرا عاماً للنقابة، متفرغاً. كان لانتصار نقابة عمال معامل ... الشديد في عمال «الموروغ» الطيبين عادة. فجأة طالبت حتى

فتيات المشارب بنقابة. ونظمت الراقصات انفسهن في نقابة راقصات السياحة، وطالبن بأجور أعلى لفنهن، وتبعهن العمال الزراعيون. شيء هائل يحدث في «المورونغو»... وأرباب العمل يرتجفون ويتأكلهم القلق.

●

موانغي روهيني في روايته «قادة المستقبل» ـ دار نشر هاينمان ـ لندن ١٩٨٢ ـ، يقدم وجهاً آخر لإفريقيا، مختلفاً، بل بعيداً تماماً عن كاريغا النقابي الذي عرفناه في «تويجات الدم».

نحن في «قادة المستقبل» إزاء شاب اسمه روبن رورو، تخرج في كلية ماكيريري الجامعية (المؤلف أيضاً تخرج في الكلية ذاتها)، وتمكن بعد الاستقلال من الحصول على وظيفة مدنية رفيعة (المؤلف أيضاً يشغل وظيفة مدنية حكومية الآن). إلا أن الطريق التي سلكها روبن رورو، من طالب فقير إلى موظف في مكتب الرئيس الكيني، جديرة بالانتباه.

تبدأ الطريق مع حفلة التخرج، حين ألقى السير جيمس هندرسون خطبة في الحفلة ذكر فيها أن أولئك الخريجين هم قادة المستقبل للبلاد.

وبمجرد التخرج يقول روبن رورو «هكذا بلغنا نهاية الطريق، وأصبحنا على القمة من كومة البشر الذين يقيمون في شرقي إفريقيا كله...». إنه يعجب إعجاباً لا حدّ له بموظفي الإدارة الاستعمارية البريطانية. ويجد صعوبة في استخدام كلمة «استعماري» التي ليست في حقيقتها إلا تحصيل حاصل حين يوصف بها موظف بريطاني في الإدارة الاستعمارية.

بعد ذلك يحصل على عمل في دائرة زراعية يشرف عليها عقيد [illegible]طاني، ثم يترك هذا العمل ليشتغل في شركة أجنبية تستورد الأسمدة، [illegible]اته الاجتماعية منحىً جديداً، فهو في هذه الشركة ذو مرتب جيد [illegible] من فتاة ذات منشأ طبقي يختلف عن منشأه المتواضع هو، [illegible] إلى أن يهجر أهله، ويمتنع عن زيارتهم في القرية،

ويقطع ... المعونة الشهرية التي كان يرسلها إليها. يتورط في قصة ... لا ... بزوجته... ويدخل السجن.

بعد السجن تطرده زوجته التي أقامت علاقة مع رجل آخر. يشهد بالصدفة، حادثة سطو مسلح على مصرف ما. يهرب المسلحون بالأموال، ... مع الرهائن الآخرين - منطرح أرضاً. ينسى المسلحون في ارتباكهم، وهم يسحبون رزمة ضخمة من الأوراق المالية، فيأخذها هو بدون أن يشعر به أحد. يقدم خدمات طوعية للشرطة تقود إلى إلقاء القبض على مرتكبي السطو المسلح. يلجأ إلى معلمة شابة كان تعرف عليها سابقاً. تساعده في الحصول على عمل تعليمي بإحدى المدارس التي تديرها بعثة تبشيرية. يتعرض لمحاولة قتل حرضت عليها فتاة، كان هو السبب في سجن زوجها. يتابع تقديم خدماته لرجال الشرطة. يقدم طلباً للحصول على وظيفة حكومية بعد أن اقترب الموعد النهائي لإعلان استقلال كينيا.

ومن الممتع أن يتابع المرء الحوار الذي جرى بين روبن رورو، ولجنة المقابلة الحكومية:

● ... روبن رورو، ستستقل البلاد بعد أشهر قليلة، كما تعلم، فما هي الأولويات التي على الحكومة المستقلة أن تتبناها؟

- ... الإنسان الأساسية: إطعام الناس، وتطوير الاقتصاد بغية ... انهم وإسكانهم.

● ... تطوير الزراعة يحتاج إلى موارد مالية كبيرة، فمن أين نأتي بها؟

- نحصل عليها محلياً، ونقترض من الخارج.

● ... ألا تظن أن الاقتراض يعني عدم الاعتماد على النفس؟

الـ... لا يمكنه الاعتماد على نفسه. وأنا لا أرى التضحية بالتقدم الاقتصادي للبلاد على مذبح إيديولوجيات أجنبية نصف مطبوخة.

● . . . هل تؤمن بالله؟

ـ نعم، أنا من قوم يؤمنون بالله.

● هل تنتمي أنت إلى ثقافة معينة؟

ـ لو عشت قبل مائة سنة لكنت منتمياً إلى ثقافة معينة. . . واعتقد أنه لا يمكننا الحديث عن ثقافة إفريقية متميزة إلا بعد مائة سنة. . .

●

في يوم الأربعاء التالي للمقابلة هذه، يتلقى روبن رورو رسالة بنجاحه في المقابلة، كما تتضمن الرسالة تعيينه في منصب سكرتير مساعد بمكتب الرئيس.

وفي مساء اليوم نفسه يذهب إلى المدرسة التبشيرية التي كان يعمل فيها، كي يخبر المعلمة الشابة «إيما» هذه الأخبار المفرحة. وفي الطريق إلى المدرسة يفكر، ويتذكر، ويستعيد خطبة السير جيمس هندرسون في حفلة التخرج تلك. . .

لقد أصبح أحد قادة المستقبل، وما عليه إلا أن يتزوج «إيما» كي يكمل نصف دينه. . . فيعيش الزوجان عيشة سعيدة.

●

ليس لي أن أتدخل كثيراً في استخلاص ملحوظات معينة ناتجة عن هذا العرض السريع لوجهين من إفريقيا. وأعتقد أن مقارنة بسيطة ستكون كفيلة بالتوصل إلى عدد من الأحكام.

كل ما أردت تبيانه هو أن الرواية الإفريقية قد قطعت شوطاً طويلاً، وإنها اجتازت فترتها الجنينية أو الطفولية، وأن علينا ـ حين نقرأ هذه الرواية ـ الانتباه إلى تعدد زوايا التناول، واختلاف الآراء، والتفاوت في مستوى

الوعي الفني والاجتماعي، وهذه كلها مؤشرات عملية تراكمية في الرواية الإفريقية المعاصرة، مما يجعلنا ننتظر أعمالاً خارقة.

●

في السنغال، تتطور أنواع أدبية تطورها المرموق، ولكن باللغة الفرنسية، علماً بأن مسلمي البلاد الذين يشكلون أغلبية السكان، تواقون إلى اللغة العربية. ويتلقون طرفاً منها في الكتاتيب التقليدية والمساجد، طرفاً يعينهم في أداء صلواتهم والقيام بالطقوس الإسلامية الأخرى، لكنه يقصر تماماً حين يراد له أن يستخدم أداة في الأعمال الإبداعية، وذلك بسبب محدودية الإعداد اللغوي وضعفه، وبسبب الأمية الضاربة التي لا تهيء جواً ثقافياً منتجاً.

لقد تطور الشعر السنغالي بالفرنسية حتى بلغ الذروة الصافية عند ليوبولد سيدار سنغور (الرئيس السابق). وتطورت الرواية حتى بلغت تألق الضوء الكشاف عند صنبين عثمان، لكن الرجلين كليهما، أخذا من فرنسا، أولاً، أداتهما.

●

صنبين عثمان (الروائي والمخرج السينمائي)، بدأ حياته صياد سمك، ومارس في داكار (العاصمة) أعمالاً شاقة، إذ كان عامل أنابيب، وميكانيكياً، وعامل بناء. بعد الحرب العالمية الثانية اشتغل عاملاً في ميناء مرسيليا، وخاض نضالات أوصلته إلى أن يغدو نقابياً، وقد ألهمته هذه التجربة روايته «عامل الميناء الأسود» ١٩٥٦.

أخرج عدة أفلام من بينها فيلم (الحوالة) المعتمد على رواية له بهذا الإسم. وقد أحرز فيلمه «كسالا» المعتمد على رواية له أيضاً، نجاحاً كبيراً في مهرجان نيويورك السينمائي.

●

... عثمان، في الرواية، شأنه في السينما، يحمل ضوءه الكشاف.

... على خلاف لبوبولد سيدار سنغور ذي القصيدة المثقلة بالعتمة، التي لا ... من السنغال إلاّ الالتقاطة الباريسية المترفة، نرى صنبين عثمان يعد ... وجه وطنه، الظلال، بمهارة جارحة، ويدفع إلى الواجهة العارية ... بلاده ومصائر أناسها، هؤلاء الذين تنهشهم الأدواء، وتستلب ... النبيل إدارات متعاقبة لا تختلف كثيراً عن الإدارة الاستعمارية في الظلم والفساد والبيروقراطية. وأنه ليحلم بولادة عالم جديد في وطنه. قائلاً «من عيوب هذا العالم القديم، المدان، سوف يولد عالم جديد طال انتظاره، ولازم أحلامنا طويلاً». وهو يأسف لأن غالبية أبناء شعبه (الأميين بالفرنسية والعربية) لن يستطيعوا أن يقرأوا ما كتب...

أهذا، إذن، يحمل صنبين عثمان ضوءه الكشاف؟

●

«الحوالة» رواية بالغة الدقة، ذات بناء يذكّر المرء بمهارة تشيخوف، ومساحات مارك توين، في آن. تبدأ «الحوالة» بداية بسيطة.

ففي إحدى قرى السنغال التي يفترسها الجوع، وتتأكلها البطالة، يصل ساعي البريد حاملاً إشعاراً بـ «حوالة» مالية مقدارها ٢٥ ألف فرنك، مرسلة من فرنسا إلى إبراهيم دينج. الذي أرسل الحوالة هو ابن أخت لإبراهيم دينج يعمل في فرنسا، وهو يرجو من خاله تسلم الحوالة والاحتفاظ بأكثرها ريثما يعود من المهجر كي يتزوج فيكمل نصف دينه.

ما أن يتسرب خبر الحوالة حتى يعم الهياج القرية الجائعة. صاحب الدكان يرسل الرز إلى بيت إبراهيم بعد أن اطمأن إلى أن إبراهيم سوف يسدد ديونه. عشرات الرجال والنساء الذين أرهقهم الجوع والنصب يأتون إلى بيت إبراهيم كي يستدينوا منه.

لكن إبراهيم دينج لم يتسلم الحوالة، بعد... ويبدو أنه سيقطع طريقاً

طويلاً قبل أن يتسلمها. يذهب الرجل إلى المدينة، بعد أن يستدين أجرة الحافلة، كي يتسلم الحوالة من مركز البريد هناك. حين يصل إلى مركز البريد يجد نفسه وسط حشد من الناس المتدافعين الذين يريد كل منهم أن يبلغ شباك موظف الحوالات قبل سواه. أخيراً يبلغ إبراهيم دينج شباك الموظف، وحين يطلب منه الموظف إبراز بطاقة الهوية الشخصية يرد عليه بأنه لا يملك بطاقة، فيقول له هذا إن عليه إخراج البطاقة خلال أسبوعين وإلا عادت الحوالة إلى مرسلها. يراجع مكتب الأحوال الشخصية، فيطلب منه موظف المكتب إحضار صور ودفع مبلغ معين وشهادة ميلاد.

يتعرض إبراهيم دينج إلى الضرب من مساعد المصور الفوتوغرافي، وإلى الاحتيال من آخرين. يعود إلى القرية منهكاً يائساً... بينما تتأجج في القرية الأضغان ضده وضد زوجتيه. فالناس يظنون أنه يكذب عليهم حين يخبرهم بأنه لم يتسلم الحوالة. إحدى زوجتيه تقدم حليتها الذهب التي صانتها طويلاً، كي يرهنها عند أحد مرابي المدينة، فيدفع المبلغ المطلوب لإخراج الهوية الشخصية ونفقات مراجعة المدينة وحصة أم المرسل البائسة. أخيراً يقع في براثن محام محتال كي يخرج له الهوية والحوالة. يكتب تفويضاً للمحامي بتسلم الحوالة. المحامي يتسلم الحوالة. لكنه يقول لإبراهيم دينج إنه قد تعرض للسرقة، وأن مبلغ الحوالة قد ذهب مع الريح... ويتكرم هذا المحامي على إبراهيم دينج بنصف كيس من الرز، وخمسة آلاف فرنك من أصل الحوالة البالغة خمسة وعشرين ألف فرنك! وقبل أن يحدث هذا كله، كان إبراهيم دينج قد أرسل إلى ابن أخته الرسالة الآتية التي تذكر ببعض رسائل تشيخوف:

داكار

١٩ أغسطس ـ ١٩٦٢

ابن أختي العزيز:

أكتب إليك سائلاً عن أخبارك، ومقدماً لك أخبار العائلة، وهي ممتازة

والحمد لله! نحن كلنا هنا نفكر بك وندعو الله من أجلك.

أخيراً، تسلمت الحوالة. لم تكن عندي بطاقة هوية حين وصلت. كل شيء يسيرةسيراً حسناً بفضل الله. أمك جاءت، وهي بخير. وقد عادت الآن. إنها لم تبق لدينا إلا ليلة واحدة بسبب العمل في الحقول. أعطيتها ثلاثة آلاف فرنك. وهي تشكرك وتسلم عليك وتدعو لك. إنها تطلب منك أن ترسل لها مالاً لتشتري ملابس وتدفع الضريبة. في هذه السنة ارتفعت الأسعار كلها. وفي السنة الماضية كان موسم الغلة سيئاً لهم. أنت سندها الوحيد في العالم.

أما من جانبي فأنا أدعو لك دائماً. وحالما تسلمت الرسالة فعلت مثلما أخبرتني. وإن شاء الله سوف تجد المبلغ كله هنا، حتى لو اختارني الله إلى جواره. أشكرك لتفكيرك بي وثقتك. هذه الأيام تصعب الثقة بالناس. أتوسل إليك ألاّ تعتبر المال جوهر الحياة، وإلا قادك إلى طريق التهلكة، عاجلاً أو آجلاً، فتكون وحيداً حسيراً. المال لا يعطي الأمان. وعلى العكس من ذلك فإنه يحطم كل ما هو إنساني فينا. لا أستطيع أن أخبرك بكل ما يدور في رأسي. أشكرك ثانية. لن أنسى ثقتك. عمتاك، ميتي، وآرام، والعائلة كلها تسلم عليك. حقيقة أنت لست في داكار، لكن عليك أن تحمي نفسك. فباستطاعة البعض أن يرميك بعين الحسود. لدينا هنا مرابط صادق. سوف أذهب إليه من أجلك. أنا سعيد جداً لأنك تؤدي صلواتك الخمس يومياً. عليك أن تستمر. لا تنس أنك أجنبي في باريس. هنا، كل الأولاد الذين في مثل سنك لديهم منازل. ليس عندي ما أضيفه، إنك رجل.

خالك

إبراهيم دينج

هنا، يسأل كاتب الرسائل: والعنوان؟ يجيب إبراهيم دينج: نسيته في البيت.

المحامي المحتال يوصل إبراهيم دينج إلى المنزل. تتوقف سيارة المحامي أمام المنزل. يضع كيس الرز ذا الخمسين كيلو عند الباب، ويمضي في سيارته البيجو. وبات البيوت العابرات يحدقن في كيس الرز بعيون جشعة. تسأل إحداهن إبراهيم دينج: أهذا رز؟ يجيب الرجل بالإيجاب ويدعوها إلى أن تضع إناء البقطين على الأرض. يملأ الإناء رزاً. تندفع الأخريات: إبراهيم دينج يوزع الرز!

تقول له إحدى زوجتيه: ما هذا الضلال يا إبراهيم؟ هل سمعت بفقير يرمي الرز؟

يجيبها: لقد سرق المحامي المال، وأعطاني كيس الرز هذا، وخمسة آلاف فرنك.

● وحليبي الذهب؟

ـ أنت أنانية دائماً. لا تفكري بنفسك. هل تعرفين كم خسرت على حساب الحوالة؟

ساعي البريد يجيء: ماذا تفعل يا إبراهيم؟

يجيبه: لقد انتهى كل شيء الآن... سألبس جلد ضبع.

● لماذا؟

ـ لأن الغش والكذب هما المقدّران، أما الأمانة فهي جريمة في هذه الأيام.

ساعي البريد يسلم رسالة جديدة إلى إبراهيم دينج:

● «إنها من باريس. وعليها طابع. أتظن كل امرىء فاسداً؟ لا... حتى الذين يعملون ليسوا سعداء، ستتغير الأمور».

ـ من يغيرها؟ إنني عاطل عن العمل منذ عام لأني اشتركت في إضراب.

لدي زوجتان وتسعة أبناء. الغش وحده هو الناجح.

● غداً، سنغير نحن هذا كله.

ـ من «نحن» هذه؟

● أنت.

ـ أنا؟

تدخل امرأة حاملة طفلاً على ظهرها، وتقاطع إبراهيم...

«يا سيد هذا البيت. أتوسل بك، لوجه الله، أن تساعدني. لثلاثة أيام لم أذق أنا وأطفالي إلاّ وجبة واحدة في اليوم. أبوهم عاطل عن العمل منذ خمس سنين، وقد أخبروني بأنك عطوف كريم».

عدل إبراهيم دينج من وقفته. والتقت عيناه بعيني ساعي البريد. لم ينطق أي من الثلاثة بكلمة واحدة.

في الإشارة السابقة إلى الوضع الثقافي في السنغال، جرى حديث سريع عن العربية والإسلام هناك. وإذا أردنا، هنا، أن نتابع الحديث، فمن الأفضل متابعته ملموساً، في لحظة المواجهة بين الإسلام الإفريقي والغازي الأوروبي. إن الوثنية الإفريقية بآلهتها وطواطمها وأرواحها التي لا تحصى، لم تستطع أن تخوض، بذاتها، مواجهة مصعّدة مع المنظومة الثقافية المتكاملة للغزاة. ولهذا وجد الوثنيون الأفارقة أنفسهم أمام خيارين، أولهما إدخال دم أوربي في المجرى الوثني الذي ورثوه، وثانيهما إدخال دم وثني في المسيحية التي اعتنقوها. من هنا تكون المواجهة بين الوثنية المنصّرة أو النصرانية الموثّنة من جهة، وبين أوربا الاستعمارية من جهة أخرى، مواجهة ملتبسة، بالرغم مما استلزمته من دماء وعذابات وحرائق...

أريد أن أخلص من هذا إلى القول بأن حركة التحرر في إفريقيا السوداء لم تنتج أنموذجها الوثني، بل أنتجت أنموذجها المسيحي، وفي أفضل الأحوال أنموذجها الأوضح ميلاً إلى علمانية الثورة الفرنسية (أثيوبيا الجديدة وأنغولا لها حديث آخر).

هل وجد الإسلام الإفريقي، نفسه، أمام وضعية مماثلة؟.

إن الإسلام، باعتباره دين توحيد ومعاملة، واجه المسيحية الأوربية قروناً عديدة، وخرج منتصراً في علامات تاريخية باهرة (بيت المقدس القسطنطينية، شبه الجزيرة الإيبيرية)، لكن هذا كله حدث قبل الثورة الصناعية.

هل يكون مبرراً، إذن، أن نذكر هذا السؤال ـ الجواب: هل استطاعت حركة التحرر في إفريقيا السوداء أن تنتج أنموذجها المسلم؟

●

رواية «المغامرة الملتبسة» L'aventure ambiguë التي كتبها شيخ حميدو كاني Cheikh Hamidou Kane من السنغال، باللغة الفرنسية، مزدحمة بالأسئلة التي يطلقها مسلم سنغالي متعلم في عالم سريع التغير، والتي يريد أن يطمئن، عبرها، إلى «سواء السبيل». شيخ حميدو كاني ولد عام ١٩٢٨ في ماتارو بالسنغال. كانت دراسته الأولى قرآنية خالصة، ثم انتقل بعدها إلى دراسة الفلسفة والقانون في جامعة باريس، وتدرب على الإدارة في «المدرسة الوطنية لفرنسا ما وراء البحار». وهو الآن يعمل في نايجيريا بوكالة اليونيسيف.

نشرت «المغامرة الملتبسة» سنة ١٩٦١، ونالت سنة ١٩٦٢ الجائزة الأدبية الأولى لإفريقيا السوداء. الشخصية الرئيسية في الرواية: سامبا ديالو، وهو من أسرة الديالوبيين الأرستقراطية المسلمة، وكانت الأسرة تعد أجيال عديدة ترسل أبناءها المرموقين إلى «دار الأنوار» المدرسة الدينية، حيث يقضون فيها سنين، يحيون حياة طلبة العلم المتقشفة، يعيشون على صدقات المؤمنين وإحسانهم، ويتلقون الدين واللغة العربية، ويحفظون القرآن كاملاً.

وبعد تخرجهم يعودون إلى منطقتهم، وإلى قومهم، ليتولوا تصريف أمور الدنيا والدين.

سامبا ديـاللو الفتى، كان أيضـاً في «دار الأنوار»، مؤهـلاً للدور ذاته، لكن شيخ المدرسة، الذي بلغ من العمر عتياً، فأخذ يبحث عمن يخلفه في التدريس والهداية، وجد في سامبا ديالو ضالته، فأراد أن يعقد على رأسه العمامة، ليكون مرشد الناس، وشيخ المدرسة من بعده، ومبصّر الديالوبيين بدينهم.

إلا أن عمـة الفتى السيـدة «اسمى الملك» ذات الشخصيـة القـويـة والنفوذ، تقنع أخاها عميد الديالوبيين بأن الفتى يجب أن يواصل دراسته في مدرسة حديثة، مدرسة فـرنسية. تقـول السـيدة «أسمى الملك» لأخيهـا في حضور شيخ المدرسة: «قبل مائة عام، سمع جدي ذات صباح، وأهل هذه المنطقة، رعوداً آتية من جهة النهر. تناول جدي بندقيته متبوعاً بعلية القوم، وقذف بنفسه ضد القادمين. كان ذا قلب جسور، وكان يرى الحريـة أثمن من الحيـاة. لقد انـدحر جـدي ومعه عليـة القوم. لمـاذا اندحـر؟ وكيف؟ القادمون وحدهم يعرفون. وعلينا أن نسألهم. يجب أن نذهب إليهم لنتعلم منهم فن الانتصار بغير حق.

الصـراع لم يتـه حتى الآن. والمـدرسة الأجنبيـة هي الشكـل الجـديـد للحرب التي ما يزال يشنها علينا هؤلاء القادمون. علينا أن نرسل نخبتنا إلى هناك، كي يتبعها أبنـاء البلاد كلهم. فـإن كانت ثمّـة مخاطـرة في الأمـر، فالنخبة هي الأقـدر على خـوضها، لأنها الأكـثر تعلقاً بمـا نحن عليه. وإن كانت ثمة فائدة فهي التي ستكـسبها قبل الآخرين. هذا ما أريدك أن تقوله للناس يا أخي، ما دام شيخ المدرسة حاضراً. إن الناس لن يرسلوا أبناءهم إلى المدرسة الأجنبية إن لم تبدأ أنت ترسل أبناءك يا أخي، كما أن ابن أخينا سامبا ديالو يجب أن يبدأ هو الموكب».

وهكـذا انطلق سـامبا ديـاللو من «دار الأنـوار» إلى مـدرسـة فـرنسيـة بالسـنغال، ومنها إلى باريس، حيث درس الفلسفة.

في باريس، يحاول سامبا ديالو الاقتراب من روح المدينة، مثلما حاول

الاقتراب من روح الحضارة الأوربية التي رآها في الفلسفة. لكنه يجد نفسه يزداد بعداً كلما ازداد قرباً. «كان يونيو يقترب من نهايته، والحرارة في باريس شديدة، وسامبا ديالللو يمشي بطيئاً في بوليفار سان ميشيل. كان نصف نائم. وخيط رفيع من التفكير يتغلغل بصعوبة في أحاسيسه، مثل تيار مائي بارد في بحر دافىء. هذه الشوارع عارية إنها ليست فارغة. فالمرء يرى فيها أشياء من اللحم، وأشياء من المعدن. كما أنه يواجه أحداثاً. إن تعاقب الأحداث يزحم الزمن، مثلما تزحم الأشياء الشارع. الزمن تعيقه الميكانيكا. لا أرضية للزمن هنا. إنني أسير في بوليفار سان ميشيل. لا شيء فيه. لا شيء سواي. لا شيءسوى جسدي. وأنا ألمسه. وما عدا ذلك فالشارع فارغ. لقد تسربت الروح. وشيئاً فشيئاً يفتح سامبا ديالللو عينيه على الحقيقة الاستعمارية المتسترة بالفلسفة (التي يدرسها)، واللغة، ويحس بالعنصرية الفرنسية. «يريدون منا أن نعتقد بأن الألمان أكثر عنصرية من أمم الغرب البيضاء الأخرى. هذا زيف. هتلر نعم. لكن الألمان ليسوا أكثر عنصرية من المستوطنين المدنيين والعسكريين في الأمم الأخرى. تذكر كتشنر في الخرطوم، وجيوش الاحتلال الفرنسية في الجزائر، وكورتيز في المكسيك. وها هم، مرة أخرى، يحاربون في سبيل الإلّه، كما يبررون أنفسهم أمامه... بأنهم يقوّمون (بتشديد الواو الأولى) مخلوقاته المعوجة ـ أو يبيدونهم إذا قاوموا».

سامبا ديالللو يريد أن يحب، لكن عليه أن يخرج من جلده! في الجامعة، تنشأ علاقة بينه وبين لوسيان طالبة الفلسفة. بعد الامتحانات يلتقيان في مقهى.

تقول له لوسيان: أريد أن أخبرك بأنني عضو في الحزب الشيوعي.

وكان سامبا ديالللو رآها في أحد الأيام توزع منشورات عند مدخل السوربون. أسرع في خطوة. وتناول نسخة من فتاة أخرى كانت تقوم بتوزيع المنشورات أيضاً، وابتعد مسرعاً عن المكان خشية أن تراه لوسيان،

وفي زاوية الشارع رأى المنشور موقعاً من الحزب الشيوعي. شعر بتقدير أكثر للوسيان، وكيف أن ابنة رجل الدين البروتستانتي المعروف اختارت هذا الطريق الوعر.

حوار الإثنين في المقهى يشير الاهتمام. يقول سامبادياللو مخاطباً لوسيان:

● دعينا لا نخفي شيئاً. أنت تعتبرين مهمتك منتهية حين تحررين آخر بروليتاري من بؤسه، وتعيدين إليه كرامته. بل تقولين إن أدوات عملك التي ستصبح عديمة الفائدة سوف تذوي، وهكذا لن يقف شيء بين الجسد العاري للإنسان، والحرية. أما أنا فلست أناضل في سبيل الحرية، بل في سبيل الله.

ـ أنت غصت عميقاً في العقل الروسي في القرن التاسع عشر... الكتاب والشعراء والفنانين الروس. أعرف أنك تحب ذلك القرن. لقد كان مليئاً بقلق مماثل وعذاب متقد ملتبس. أتكون روسيا الطرف الشرقي الأقصى لأوربا، أم رأس الجسر الغربي لآسيا؟ هذا السؤال لم يستطع المثقفون الإجابة عنه، أو تجنبه...

إنهم لا يحبون الحديث عن «السلافية»، لكن من لم يركع منهم أمام «روسيا المقدسة»؟

● أريد أن أقول لك إن لا قسيس ولا طبيب قادران على معالجة هذا العذاب.

ـ نعم... ولكن لينين؟

●

عميد أسرة الديالوبيين يستدعي سامبا دياللو قبل أن ينهي دراسته، كي يقوم بدوره في تصريف شؤون قومه. يغادر باريس ممزقاً بين حضارتين.

وحين يصل إلى السنغال يعرف بموت الشيخ، معلمه، في «دار الأنوار» يذهب ليلاً ليزور قبره.

وهناك، في الظلام الشامل، يلتقي بـ «الأبله». و«الأبله» هذا قد كان غادر المنطقة، وغاب سنين، حيث انخرط جندياً مع القوات الفرنسية، واشترك في حرب عالمية بين البيض، ثم عاد إلى المنطقة مختل العقل، كي يلازم الشيخ في «دار الأنوار» حتى فارق الشيخ الحياة الدنيا.

في المقبرة يهز الأبله سامبا ديالو: لنصلّ. قد حانت الصلاة!

كانت عروق وجهه نافرة. دفعه سامبا ديالو عنه:

لن أصلي. أريد الانصراف.

يصرخ الأبله: لا يمكن أن تنصرف هكذا، بدون أن تصلي. قف. قف أيها السيد.

سامبا ديالو يحاول الانصراف. يلحق به الأبله:

عدني بأنك ستصلي أخيراً، في الغداة، وسأتركك هنا. أخذ الأبله يسير وراء سامبا ديالو وهو يبحث كالمحموم في سترته الطويلة السوداء.

أخيراً يقف الأبله بمواجهته: عدني بأنك ستصلي غداً.

ـ لن أوافق.

حينها، سحب الأبله سلاحه. وفجأة اسودّ كل شيء حول سامبا ديالو... وإنه ليدخل الآن ذلك الملكوت العميق، حيث لا يدخل الالتباس.

مونغوبتي Mongo Beti في الكاميرون، يكتب بالفرنسية، شأنه شأن صنين عثمان في السنغال: فالفرنسية هي السائدة في عدد من بلدان غرب إفريقيا، والكتاب الأفارقة في هذه البلدان تلقوا صدمتهم الثقافية والحضارية

والسياسية في فرنسا، أولاً.

إن مونغوبتي - على سبيل المثال - المولود عام ١٩٣٠ درس في الكاميرون، ولكن في «ليسيه» فرنسية، قبل أن يواصل دراسته في جامعة اكس بروفانس والسوربون، بل أنه اختار فرنسا مقاماً له منذ سنين، وهو في هذا يقترب من مسيرة عدد من الكتاب الجزائريين الذين لم يملكوا إلا الكتابة بالفرنسية، والذين اختار بعضهم فرنسا، مقاماً له أيضاً (محمد ديب مثلاً). إلا أن كاميرونية مونغوبتي وجزائرية محمد ديب قد أضافتا عناصر جديدة إلى كأس النبيذ، بحيث لم يعد صحيحاً أن ننسب ما تحتويه الكأس إلى عروق كرمة بأحد الحقول الفرنسية. فـ «تلمسان» لا «جرينوبل»، و «بومبا» لا «مونبارناس»، هما ما يتقطر بين أنامل محمد ديب ومونغوبتي. والرواية الإفريقية، باعتبارها نوعاً أدبياً، ليست الفريدة في هذه الظاهرة، ظاهرة اغتراب اللسان، فالشعر الإفريقي - غير المكتوب بالعربية - ذو إشكالية قريبة من إشكالية الرواية، بالرغم من جذوره الضاربة عميقاً في الموروث الشعبي، المروي، والمؤدي. إذ على الشاعر أن يختار بين واحدة من مئات اللغات (في الكونغو مثلاً، وهي لغات محدودة بأهلها الذين قد لا يتجاوزون بضعة آلاف، وبين لغة من اللغات الأوربية تضمن له الذيوع والانتشار، وتدخله في حركة العالم الثقافية.

●

الهاجس الذي يتأكل مونغوبتي، ويجد سبيله إلى رواياته، هو هاجس الرفض: رفض المجتمع الإفريقي للقيم الغربية التي جاء بها المبشرون والإداريون الاستعماريون. إن المجتمع الإفريقي، بالتأكيد، لا يرفض قيم التقدم. لكن الأفارقة يشعرون بأن عاداتهم الاجتماعية وعباداتهم وطقوسهم أكثر ملاءمة لهم من هذه «المزبلة» التي تنشرها الإرساليات التبشيرية في غاباتهم، مثلما عبرت إحدى شخصيات مونغوبتي.

هم ليسوا ضد شق الطرق التي تربط أعماق الغابة بأضواء البلدة،

لديهم، بالتأكيد، ضد نظام السخرة الذي يستخدمه المستعمرون في شتى الطرق.

هم ليسوا ضد العلم، لكنهم ضد ما يقيمه المبشرون من أجهزة تعليمية قاسية الواقع والوقائع والغايات. هم يقدرون رجل الدين. إلا أنهم لا يهدون فرقاً بين «القسيس والتاجر اليوناني»، أو بين القسيس والحاكم الإداري الفرنسي، بل قد لا يجدون فرقاً بين اللجوء إلى الكنيسة أو السجن الحكومي في حالة الاضطرار، وإن فضلوا القسيس على الحاكم، باعتبار أن القسيس يملك جنوداً «منظورين» يستخدمهم متى شاء، أو يستدعيهم لإطلاق النار على من يرفضون الصلاة في كنيسته، كما أن التعاليم الدينية حول المساواة والأخوة في الدين. الخ، لا تروق لمديري الأقاليم الذين هزتهم تجربة الهند الصينية هزة عنيفة يقول مدير الإقليم للقسيس في إحدى روايات مونغوبتي: «سرعان ما تجد شيوعياً إلى جانب أي مسيحي. والأكثر من هذا إنهم حين يبدأون بحز الرقاب ستكون رقبتك هي الأولى. هذا أمر حتمي. لن يقنعني أحد، أبداً، أن «تونكين» لم تكن أفضل في أيامها الغابرة، حين كان الفلاح يحرث أرضه بسلام، والصياد يجلس عند حافة النهر، والإدارة الفرنسية ترعى الإثنين. فقط حين جاء الشيوعيون وأخذوا يتدخلون في أمورهم.. !».

●

هاجس الرفض ـ كما قلت ـ هو الذي يشق سبيله في روايات مونغوبتي، نجد هذا واضحاً في «المسيح الفقير من بومبا»، وفي «الملك العازر» مثلاً. وسأتحدث في هذه «الانطباعات» عن «الملك العازر» مؤجلاً الحديث عن «المسيح الفقير من بومبا» إلى فرصة أخرى.

معروف أن العازر هو الشخص الذي أحياه السيد المسيح بعد موته، فأعتبر الأمر من معجزاته.

لكن العازر الذي يقدمه مونغوبتي في رواياته شخص طريف ظريف. مر بالتجربة القديمة ذاتها، إلا أنه مرور المهزلة الصارخة.

الأشخاص الثلاثة هم هم: الميت. المنقذ، المرأة. وأسماؤهم هنا. الزعيم ميسومبا مندوجا. والقسيس لوجوان. والعجوز يوسفة عمة الزعيم المهزلة هنا، أن ميسومبا مندوجا زعيم منطقة إيسازام، كان رجلاً كسولاً، مزواجاً، عنده ثلاث وعشرون زوجة، أولاهن ماكريتا التي تنصرت، أما الزوجة الثالثة والعشرون فهي «عنابة» التي تقيم معه تحت سقف واحد، وهي فتاة جميلة لم يمض على زواجه منها غير عام واحد. مندوجا لم يمرض يوماً.

القسيس لوجوان كان تحت ضغط من الأسقف لرفع وتيرة التنصير في المنطقة، لكن منطقة ايسازام تمتاز منذ وقت بعيد بكره واضح للسلطة والإدارة. حكمها الألمان في بداية القرن وأخضعوها لنظامهم الصارم، ثم جاء الفرنسيون... لكن الأهالي ظلوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم وانقساماتهم وزراعتهم البدائية، ولم يقل عددهم عن مائة ألف، بالرغم من الأمراض الجنسية والكحول والأشغال الشاقة والتجنيد في حربين عالميتين وإغراء المدينة الكبيرة. حاول الفرنسيون أن يفرضوا على الأهالي زعيماً غريباً كان رئيس عرفاء إلا أنهم نجحوا في إقصائه بعد جهود كبيرة وبوسائل عديدة، وأحلوا محله أيسومبا مندوجا هذا الذي تجري في عروقه دماء زعيمهم الأسطوري القديم، وعادوا إلى سيرتهم الأولى قانعين بزراعتهم البدائية وماشيتهم القليلة. القسيس لوجوان يريدُ أن يدخل مندوجا في الديانة المسيحية. وفي هذه الحال على الزعيم أن يصرف اثنتين وعشرين من زوجاته، ويبقي واحدة يتزوجها في الكنيسة!

●

في أحد الأيام يمرض الزعيم الذي لم يمرض يوماً...

وخلال أيام قليلة بدا لأهل ايسازام أنه ميت لا محالة، وأنه سيقطع النهر قريباً لينضم إلى أسلافه... وانتشر الخبر في المنطقة ناراً في هشيم، وجاء الكبار من كل عشيرة كي يكونوا حاضرين فيشهدوا اللحظات الأخيرة لشقيقهم في الدم وزعيمهم العظيم. راح الزعيم في غيبوبة، وفقد النطق... وأخذ يحشرج كأنه في النفس الأخير. حل الفزع بايسازام وأهلها. وأخذ الطبالون يدقون على طبولهم رسائل حزينة تخترق الغابة العميقة، داعية السحرة والأطباء المشعوذين مهما كانت عشيرتهم وفصيلتهم لإنقاذ الزعيم في لحظات محنته. وظلت الغابات ترتجف ليل نهار بإيقاع الطبول الراعد، كأن الرسائل تنتقل ليس فقط من قرية إلى قرية، وإنما من شجرة إلى شجرة أيضاً. وكانت هذه الدراما تجري وسط عاصفة عنيفة تهب بدون انقطاع، مصحوبة بالبرق والرعد والمطر المدرار، ممزقة الغابة والأفئدة. مقتلعة الأشجار وسقوف المنازل... حتى لقد أضاعت نسوة طريقهن، وضل أطفال في الغابة... وما أن هدأت العاصفة، واحتبس المطر، حتى توافد الكبار والحكماء الذين أضاعوا حكمتهم في الفزع الشامل. ومن بين هؤلاء كانت «يوسفة» عمة الزعيم المخبولة المتنصرة التي علقت مسبحتها على الزعيم المسجى، وملأت كوب ماء ورشته على رأسه، صارخة وسط الناس المذهولين: «إنني أعمدك باسم الأب...»! يسمع لوجوان النبأ، نبأ التعميد، فيسرع إلى منطقة إيسازام، ليقيم الطقوس الأخيرة للزعيم المحتضر... الزعيم الذي سيلقى ربه مسيحياً...

●

في صباح عجيب، ووسط الناس المتهيئين والزوجات الحزينات النادبات بصمت، يفتح الزعيم عينيه... يا للعجب... إنه لم يقطع النهر، بعد. ليلتحق بالأسلاف...

وساعة بعد ساعة، يعود إلى الحياة، أو تعود إليه الحياة... وها هو ذا يتململ، ثم ينهض مترنحاً ويسير... إنه المنبعث!

لوجوان القسيس يأتي لاهثاً: يا للمعجزة... لقد أسميتك العازر. الملك العازر!

●

أخذ الناس ينحرون الذبائح ابتهاجاً. يرقصون ويتسابقون. الفتيات يرقصن في حلقات تتوسط كل واحدة منها فتاة. والفتيان يتصارعون. والآخرون يتفرجون. لكن أيام الابتهاج تتعثر وتتوقف.

فالقسيس لوجوان بحث الملك العازر على تسريح زوجاته الثلاث والعشرين إلا واحدة. وإن الأمر لعسير حقاً... فالزعيم كان زعيماً «بالفعل»، إذ اختار زوجاته الثلاث والعشرين من مختلف العشائر كي يضمن ولاءها والتفافها حوله... أيام الابتهاج تتحول إلى أيام اقتتال. وتتعرض الزوجة الثالثة والعشرون إلى ضرب مبرح كاد يؤدي بحياتها، ويهجم الناس على القسيس لوجوان ويوسعونه لكماً، فلا ينقذ نفسه إلا بصعوبة بالغة، وتصل الأنباء إلى السلطات الفرنسية، فترسل جنودها إلى المنطقة.

●

بعد أسبوع تتفرق القبيلة في الرياح الأربع، وتعود العشائر البعيدة إلى حقولها وغاباتها. وتستعيد إيسازام هدوءها النعسان، وتدخل الأحداث الماضية في الذكرى. أما الزعيم فقد نسي، سريعاً، مرضه، وكذلك مسيحيته أيضاً، وصار يبغض القسيس، ومع أن إيسومبا مندوجا ما زال يحمل عبئه الجديد، اسم العازر، إلا أنه يعود إلى زوجاته الثلاث والعشرين، وإن ظل يخاف خوفاً غامضاً من كائن سماوي ذي ثياب بيض...

القسيس لوجوان يتلقى في العشرين من نوفمبر ١٩٤٨ رسالة من المندوب السامي للجمهورية الفرنسية تفيد بموافقة السلطات الكنيسية على

نقله إلى جهة أخرى وأن هذه السلطات هي التي ستتولى إبلاغه بالجهة المعنية.

في هذه العجالة الواضحة، حاولت أن أقدم «هيكلاً عظمياً» لرواية مونغوبيتي «الملك العازر» وأكيد أن محاولتي غير مبررة. فنياً، بل فكرياً أيضاً، إذ تعين علي أن استبعد تفاصيل ذات أهمية بالغة، ليس من ناحية تقديم الشخصيات والمواقف فَحَسبْ، وإنما من ناحية إبراز الجهد الفني والبناء الفكري للروائي الكاميروني كذلك.

وقد أجد شفيعاً لي في هذا كله كوني أقدم «انطباعات» محدودة المساحة والهدف، لكنها ذات فائدة ما في تسليط الضوء. بعض الضوء على أدب قارة عظيمة، أدب شعوب تؤكد هويتها، يومياً، في مجرى النضال الإنساني الشامل، وتمنح التطور الحضاري نكهة جديدة مفعمة بالأصالة.

سعدي يوسف

كان جسمه يتصبب عرقاً، وقميصه ملتصقاً بجلده. وجهه يلمع. وهو يتنفس مفتوح الفم تنفساً ثقيلاً. كان ساعي البريد يصارع الرمل على دراجته. ارتقى التلّ الرملي، متشبثاً بالمقود، بارز الصدر إلى الأمام، وهو يلعن السكان والحكومة.

فكر: «ماذا ينتظرون لتبليط الطريق؟».

الزوجات العائدات من السوق نادينه مازحات: «إيه، يا رجل، لقد بللتَ نفسك!».

خلّفنه ومضين. توقف. أسند دراجته إلى بطنه الناتيء، ومسح وجهه بمنديل قطن. ظلت عيناه تتابعان ظهور النساء، رشيقات خفيفات، أوانيهنّ القرعية متوازنة على رؤوسهن، لا يكدن يمسسن الأرض. انطلق ثانيةً، ابطأ من السابق.

كانت البيوت متقاربة متماثلة: مبنية من خشب عتيق بالٍ، مسقوفة بصفيح صدِيء، أو فروع شجر لم تجدد، أو حتى بمشمع أسود.

أسند ساعي البريد دراجته إلى الوتد الملتوي للباب. امرأتان كانتا تقتعدان الأرض. ردتا تحيته مرتابتين. إنهما تعرفانه، لكن الرجل يثير لدى الناس نظرةً مجافية، بسبب عمله.

«أيتها النسوة، هل زوجكن إبراهيم دينج في البيت؟»

ميتي، وهي كبرى المرأتين والزوجة الأولى، نظرت مستفسرة، إلى وجه

الرجل، ثم إلى يديه، وقالت: من؟

قاطعها ساعي البريد: ميتي، أنا أسكن في هذا الحي، وأعرف أن إبراهيم دينج هو سيد هذا البيت، أنا لست أجنبياً.

ـ باه (اسم ساعي البريد) ماذا قلتُ؟

● لا شيء في الواقع. لا شيء كي يرسلك إلى جهنم.

ـ أنت تعلم جيداً أن رجلنا لا يكون في البيت، في مثل هذه الساعة. نعم، هو عاطل. لكن أن يظل مولولاً طوال النهار بين أثوابنا... لا! أنت تسأل كما لو كنت أجنبياً.

● يجب أن أؤدي عملي. عندما ترينني أيتها النسوة تتصرفن كأنكن رأيتن شرطياً.

ـ أنت أسوأ من شرطي. ما عليك إلا أن تترك مرة أو مرتين لرجال الضرائب كي يأتوا ويأخذوا أشياءنا. أنت لم تأت البتة بنبأ سار إلى بيتنا.

● تماماً. لكن الأمر يختلف هذا الصباح.
ـ آه!

قالت ميتي، وانتصبت بسرعة على قدميها، وثوبها يتدلى من عجيزتها الكبيرة.

● عجيب! ما أن يأتي ذكر النقود حتى نراكن تتمعجن كالديدان. إنها نقود.
ـ من أين؟
● من باريس. حوالة.
ـ باريس؟ من ترى إبراهيم يعرف في باريس؟ أأنت متأكد أنها له؟ باه... لا تقتلنا أملاً.

● بل إن ثمة رسالة معها. أنا أعرف شغلي.
ـ أسمعتِ يا آرام؟

نادت ميتي، سعيدةً، الزوجة الثانية التي انضمت إليهما. كانت أصغر سناً، سمراء، غائرة الخدين، حادة الذقن.

سألت ارام: حوالة... بكم؟

● ٢٥ ألف فرنك!

استغربتا للمبلغ.

قالت ارام: جاءنا الله أخيراً، يا ميتي. وأنت دائماً كنت تندبين حظنا العاثر.

تسلمت ميتي الإشعار والرسالة، فخامرها شعور مبهج بالقوة، بالغنى:

رسالة وحوالة! من تراه أرسلها؟ قالت آرام: أجنبي. ليس في باريس إلا الأجانب! أتظنين يا ميتي أن رجلنا لا يخبرنا عن كل شيء؟ قالت ميتي: هل نعطي باه الرسالة؟

● لا، أيتها النسوة... لا. ليس من عملي أن أقرأ الرسائل أو أكتبها.

ثم تركت ساعي البريد المرأتين.

البارحة ظلتا مستيقظتين، تفكران في المشكلة ذاتها. كانتا تعرفان أنهما داوتا على كل أصحاب الدكاكين في الحي. إنهم مدينون لهم جميعاً.

قالت ميتي: لا يمكننا انتظار عودة رجلنا لنجد ما سنأكله هذه الظهيرة. أنا متأكدة أن مبارك سيسلفنا كيلو رز، ونصف لتر زيت بقوة هذا الإشعار والرسالة. لدينا قليل من السمك المجفف والفاصولياء منذ أمس.

فكرت آرام لحظة، ثم قالت موافقة: هذا ما يجب أن نفعله.

انطلقت الإثنتان، وكل واحدة تمسك بيدها طفلاً.

●

لم يسأل من أين جاء الرز، مطبخاً هكذا مع السمك المجفف والفاصولياء. لقد أكل حتى شبع تماماً. تجشأ مرتين بصوت عال، وقال «الله أكبر». كان جالساً على فروة كبش، عند سريره. وسأل دون أن يوجه سؤاله مباشرة إلى أي من زوجتيه: هل بقي شيء من الكولا؟

قالت زوجته الثانية من الخارج: ابحثي في الجرة التالية لماء الشرب.

قال لزوجتيه وهو يختار: آرام، حبات الكولا هذه ليست بقايا. أربع حبات من كل لون! لن تقولا لي إن الله جعل السماء تمطر دفاتر مليئة بالمال هذا الصباح، أو أن واحدة منكن قد ورثت ليبو العجوز!

● لا يا دينج! الله الرحمن الرحيم لا ينسى عباده!

ـ حقاً، يا زوجتيّ! حقاً، الله أكبر! رحمته واسعة. إنه يساعدنا ليل نهار.

● انتظرا، انتظرا، قبل أن تكسرا الحبة وتتقاسماها. دخلت ميتي، ووضعتْ أمامه، على فروة الكبش، إناء صغيراً فيه شرائح طريئة من الباباي تعوم في ماء به سكر قليل.

ـ فاكهتي المفضلة! اغسلي لي الكولا.

خرجت ثانية.

عض في الباباي الطري فذاب في فمه، وتقطر العصير على شفتيه.

● بسرعة، يا دينج.

جاءت آرام بقماشة عتيقة، وجلست قربه.

كانت تشغل نفسها بترتيب المكان. غسل دينج يديه ثانية. عادت ميتي، واختار قطعة كولا من راحتها. نهض بصعوبة، وتمدد على السرير، وهو يردد آيات من القرآن. قال لنفسه: لا أدري إن كانت لدي القوة للذهاب إلى المسجد؟

هتفت آرام: ثمة شحاذ عجوز.

وقبل أن يجيبها، توصل إلى وضع مريح ومدّ رجليه. كان ممنوعاً على زوجته وأطفاله أن يقدموا صدقات للرجال القادرين أو الشبان. فهذان الصنفان، كما يرى، من الطفيليات، الباحثة عن وجبة بالمجان. حين نوقش هذا الأمر في المسجد، لم يتزحزح عن موقفه، وظل يجابه حجج الآخرين، مطالباً بأدلة من سور القرآن تقضي بالتصدق على هؤلاء الناس.

سأل: أهو عجوز حقاً؟

ـ نعم.

ـ حسناً إذن، أعطيه فضلة الزاد، عسى الله يبعد عنا معها.

كانت هذه الكلمات هي التي يرددها كلما قدم صدقة. بين حين وآخر كان نسيم بارد يحرّك الستائر. وفي المعتقد الشعبي أن الزوجات المباركات المقيمات في الجنة يروّحن عن أنفسهن. كان دينج ممدداً. تنفس تنفساً عميقاً، وتثاءب.

ـ عذراً، ميتي، دلّكي ساقيّ. كم مشيت اليوم!

ـ يجب ألا تشكو. فالله العظيم لن ينسانا.

ـ الله! الله! على المرء أن يزرع حقله.

دلّكت ميتي، مطيعةً، ساقيه، واحدة إثر أخرى، حتى ظهره. وسرعان ما نام دينج. أما هي فقد تسللت على أطراف أصابعها، خارجة.

حين عادت ميتي إلى موضعها على الحصير سألتها آرام:

ـ هل أخبرتِه؟

أجابت ميتي، وهي تتطلع إلى مكان ترقد فيه:

ـ لم أخبره بعد. دعيه يرتاح. حين يؤذن المؤذن أوقظه وأخبره.

ولحرارة الهاجرة سرعان ما رقدتا.

استيقظ بعد وقت الصلاة. فأفرغ غضبه على آرام وميتي، متحدثاً إلى نفسه بصوت مرتفع.

- كأنني أعيش في منزل ملاحدة وكفّار. لست أدري إن كانت أي واحدة منكما تصلي وقت غيابي. كما أنني أتساءل أيضاً عن إيمان أطفالي.

لم ترد عليه أي واحدة منهما.

بعد أن توضأ، وباعتزاره مؤمناً وقوّاماً على زوجتيه، قادهما إلى طريق الله. وقفت المرأتان خلفه بخطوات قليلة، تقلدان حركاته.

انتهت الصلاة. وكان يوشك أن يغادر البيت، حين قالت ميتي مثل قطة تبرز مخالبها:

- يا سيدي العزيز. جاء باعساعي البريد. لك رسالة.

● رسالة؟ ممن؟ ما لون الورق؟

- لا. إنها ليست ورقة ضراب.

● ماذا تعرفين عنها؟

- أخبرنا باه أنها جاءت من بريس. وكذلك الحوالة.

● حوالة؟

- نعم.

● اسمعي. لندخل البيت. لا يمكن أن نتحدث عن النقود في الشارع.

قالت ميتي في الداخل:

- عبدو أرسل إليك ٢٥ ألف فرنك. ألفان لك، وثلاثة آلاف لأمه. ويريدك أن تحتفظ له بالعشرين ألفاً الباقية. إنه يسلم عليك، ويسألك أن تجيبه حين تتسلم الرسالة والحوالة.

● إذن، يعرف مبارك بالأمر

ورفع ذقنه بغضب.

كان عليك ألا تدعيه يقرأ لك الرسالة، ولا أن تستلفي من ذلك اللص بدون أن تسأليني أولاً.

- لم يكن لدينا ما نأكله اليوم.

وأضافت آرام: ولا أمس. لا يمكن أن يظل الأطفال أحياء بلا طعام. لا يمكن أن يعيش الأطفال على الجوع.

● على الزوجة الفاضلة أن تسأل (قال هذا بالفرنسية) الآن سيعرف الحي كله أن لديّ حوالة.

تحملتا غضب زوجها صامتتين. قال لها ذلك، ثم خرج من المنزل متعالي الخطو، شامخ الرأس، والرسالة والحوالة في جيبه.

كانت في دينج نقطة ضعف إزاء الملبس. التطريز الحريري حول عنق جبته الواسعة، كان تطريزاً يدوياً، وبتشكيلات مختلفة، وخيوط بيضاء وصفراء وبنفسجية. هذه الرغبة في التأثير على جاره، وهذا الذوق في الثياب، جعلاه أعلى بدرجة من الشخص الذي يكلمه، هذا الشخص الذي لا قيمة له، في رأيه، إلا بالمظهر والملبس.

يقع دكان مبارك في ركن الشارعين. وهو دكان مائل، تعيس من الخارج، وليس أفضل في الداخل. البضائع مكدسة على رفوف مترنحة معلقة بأسلاك وسيور جلد. وفي المساء يتكوم عليه الذباب. أما النُضُد المصنوع من خشب غير صقيل فكان مثقلاً بالتراب.

حين دخل دينج الدكان تبادل الرجلان سيلاً من التحيات سأل صاحبُ الدكان: جاءت ميتي قبل حين لتشتري بعض الأشياء. هل فعلتُ حسناً بإعطائها ما أرادت؟ قال دينج ممتعضاً: لقد فعلت حسناً. الحق أنني تسلمت حوالة صغيرة تمكنني من دفع حسابي. ألا تخبرني كم أنا مدين لك؟

● ليغفر الله لي، ولكل المؤمنين، الفكرة التي يبدو إنك تنسبها إليّ. ربما لم

أسمع جيداً. . . بيني وبينك، من الأفضل أن نفكر بالأشياء قبل أن ... مسامع الغرباء. لماذا تسألني عن حسابك؟ ليس بسبب تلك الحوالة. ... آمل! فقط أنا سألت ميتي أن تدعوك لأن رزاً قد وصلني. . . إنه ... جديد، خشن الحبّات.

وبعينين جاحظتين وهدبين مرتعشين، نظر صاحب الدكان يسرةً أولاً ثم يمنةً. ومال على دينج، ونشر بعناية، قطعة قماش حمراء مربعة فيها بضع حبات فاخرة مكتنزة من الرز. واستمر قائلاً بصوت خفيض خال من التعبير: «إنه رز من الهند الصينية. ليس رزاً أميركياً أو فرنسياً. هذا الرز أكثر اقتصادية من الأنواع الأخرى. ليس لدي إلا ما يكفي للخواص من زبائني، أمثالك».

غضّن مبارك جبهته، والتمعت عيناه النديتان اللتان تشبهان عيني خزوف.

لم يكن دينج متحمساً، لكنه كان متلهفاً للحفاظ على الفائدة، ولهذا لمس الرز بأطراف أصابعه، اعترته رعدة، كالصدمة الكهربائية، اخترقت جسمه حتى شعر رأسه.

حدّق مبارك في وجه زبونه.

● هذا هو الرز الذي أكلته اليوم. ما رأيك فيه؟ سهلُ الهضم. لا يلتصق حين تطبخه مثل رز الإفرنج. وهو ليس مليئاً بالنشا. انظر إلى سطحه. طبيعي تماماً! ما رأيك؟ سأفرد لك خمسة عشر كيلو. لا يمكن أكثر.

واختتم كلامه بأن طوى قطعة القماش ثانية.

ـ كم سعر الكيلو؟

● السعر نفسه. يشهد الله أنني دهنت راحات كثيرة كي أحصل على هذا الرز. أي نوعية! ولمن؟ لكم يا أصدقائي. أتظنون أني أريد أن أكسب

مالاً منكم؟ لو أخبرتك بعدد الناس المدينين لي لعرفت كم هو قليل ربحي. كل ما أريده أن أسترد مالي. خيرٌ لي أن أخسر ربحي على الكيلوات الخمسة عشر من أن أخسر سمعتي.

استطاع مبارك أن يقنع دينج. أما عن حسابه، فما عليه إلا أن يمرّ وهو في عودته من مركز البريد. ولكي يبرهن مبارك على صداقته، كسر جوزة الولا، واقتسمها مع دينج، قائلاً نصف ساخر، نصف جادّ:

خذ رزقك الآن، وإلاّ أعطيته لشخص آخر يدفع نقداً.

لم ينتظر دينج، وإنما نادى ولداً عابراً: استدع ميتي، امك.

وحتى لا تفلت منه الفرصة، استدان خمسة عشر فرنكاً من مبارك كي يدفع الأجرة.

ولم يكد يقطع الطريق بعد تركه دكان مبارك، حتى أوقفه جاره جرجي ميسا، وهو وغد، مريض بالاستدانة.

● إبراهيم... دينج!

ـ ميسا؟ كيف حالك؟

● الحمد لله... وعائلتك؟

ـ بخير، الحمد لله!

كان رأس جرجي ميسا مستديراً، بالرغم من عرّاقيته القطنية ذات الحياكة اليدوية. كان قفطانه يخفق في النسيم. بعد باردات قليلة، ظهر باه، ساعي البريد، على المرتفع، وهو يدفع دراجته، مفتوح القميص. كان لا يرتدي شيئاً تحت قميصه، وبطنه بارزة حول خصره، متدلية على ركبتيه. بعد التحيات المألوفة سارا معاً.

«رأيتَ الرسالة والـ...»

لم يتم ساعي البريد كلامه، فلقد ذكّرته نظرة من دينج «أن عليك ألا

تتحدث عن النقود في الشارع»، ومع هذا أقر دينج بالأمر ناخراً.

● أخبار من أين؟

ـ ابن اختك.

أضاف جرجي ميسا: أمرٌ حسنٌ دائماً أن نعرف أن الشباب يفكرون بنا. إن واجبهم العناية بمن هم أكبر سناً. لكن أبناء أخواتي يهملونني، للأسف. أنا لا أتلقى شيئاً من أحد.

قال باه، وقد أحس أن الكلام موجه إليه:

ماذا تتوقع؟ أنا أتسلم الأشياء وأسلّمها. أنا رسول الجميع.

ـ لم أكن أعنيك.

قال باه وهو يعتلي دراجته: أنا متأخر قليلاً. أراكم في المسجد، فيما بعد.

لم يكن دينج مسروراً برفقة جرجي ميسا. «أتراه يعرف أنني ذاهب إلى مركز البريد؟ كيف أمكنه أن يعرف؟ دكان مبارك محل عام. لا سرّ هناك».

ـ أعرف أن مبارك وصله رز ممتاز؟ من الهند الصينية.

أجابه دينج: لا.

ـ ماذا؟ لهذا لم آت وأزعجكما أنتما الإثنين. مبارك يحب الأسرار التي ليست أسراراً.

قال دينج بأكثر نبراته طبيعية: ذهبت إلى الدكان لأراجع حسابي. «سوف يعتقد بأن لديَّ بعض النقود. على كل حال... أين تراه ذاهباً؟» هكذا فكّر دينج.

ـ أخبرك، إذن. رفض أن يبيعني ديناً. لكن أذهب إليه حين تعود. إنه يبيع تحت النضد. إنه محتال، مبارك هذا أنت مدين له بمائة فرنك، لكنك تخطو

خطوتين فقط فيتضاعف المبلغ. إنه قادرٌ على امتصاص عظام جثة عمرها مائة سنة!

دخلا في حديث. اعترف الإثنان بأنهما لا يستطيعان إطعام عائلتيهما إلا بالدَين، وأن الأسعار قد ارتفعت كثيراً تأوه جرجي ميسا: هذا العالم مكان مرير لنا.

حين بلغا موقف الحافلة، تساءل دينج:

ـ إلى أين أنت ذاهبٌ، يا ميسا؟

● أنا ذاهب معك.

ودخل الحافلة قبل دينج.

الحرارة الشديدة تمتزج بالرائحة الخانقة لدخان العادم الذي يملأ الهواء. الساحة تضج بالمقعدين والمجذومين والأطفال البؤساء، الضائعين جميعاً في ذلك المحيط. ماء الشرب يسيل من حوض إلى حوض أنظف تحته. العربات تصرُّ على محاورها. السيارات والدراجات النارية. ضجيج يصم الآذان.

شحاذ ماكر يمد يده التي أكل الجذام أصابعها إلى ركاب السيارات المتوقفة بسبب إشارة المرور الضوئية، وينادي بصوت مصطنع لا يكاد يُسمع.

دخل دينج وجرجي ميسا، مركز البريد، معاً. ثمة أناس ينتظرون على كل الشبابيك. استفسر جرجي ميسا وقاد دينج إلى شباك الحوالات المالية. هنا كان طابور طويل أيضاً، تقف في نهايته عجوزٌ بدينة. ربما كانت متعبة، أو نافذة الصبر، ولهذا اقتعدت الأرض غير عابئة بكل ما يدور حولها. كانت تبدو مثل كتلة لحم عديمة الشكل. كانت فاقدة الملامح تماماً.

مال جرجي ميسا على النُضد، وراقب الموظف وهو يعد الأوراق المالية. الوقت يمضي. «قف مكاني. أنا ذاهب لأجد من يقرأ لي رسالتي».

وجد دينج كاتب رسائل قرب صندوق الرسائل. كاد يرفض الرسالة لكن دينج شرح له أن زوجته هي التي فتحت الرسالة ظانة أنها لها. كان لكاتب الرسائل أنف مثل قدم الفيل، وعلى عينيه نظارتان معدنيتا الإطار تنزلقان باستمرار على أنفه، مما يجعله يحس بالارتباك. الرسالة جاءت من باريس. من ابن أختك، عبدو. وقرأ:

باريس
١٩ يوليو ١٩٦٠
خالي العزيز:

أكتب إليك لأعرف أخبارك. كيف حالك وحال عائلتك؟ أما أنا فبخير والحمد لله، وأسأل الله أن تكونوا جميعاً كذلك. أنا استفدت من زيارة صديقي دبالللو لأكتب إليك.

أظنك علمت أنني في باريس. أنا بخير والحمد لله. أفكر فيكم ليل نهار. أنا لم أذهب إلى فرنسا لأكون شحاذاً أو لصاً، ولكن لأحصل على عمل، ولأجمع قليلاً من المال، ولأتعلم إن شاء الله صنعة حسنة. لا عمل في داكار. ولم أستطع أن أظل عاطلاً، قاعداً لا أعمل شيئاً. الشباب مفسدة. استدنت مالاً لآتي إلى هنا. حقيقة أنني لم أخبرك ولم أخبر أمي بما اعتزمته. لم أستطع البقاء هناك منتظراً، أعيش على الهواء. لقد صرت في سن الزواج، وينبغي أن تكون لي زوجة. أنا رددت المال الذي استدنته. ولهذا لم أرسل أي نقود أو رسائل إلى أي حد منذ وصولي فرنسا. الطريق أمامي واضحة الآن والحمد لله. عليك ألا تصغي إلى كل ما تسمع. إن كنت فاشلاً في فرنسا فلأنك أردت ذلك. بعد العمل أعود إلى المسكن، وأؤدي صلواتي الخمس. ولرضا الله ونبيه محمد لن تبتل شفتاي بقطرة كحول. أرسل لك هذه الحوالة بمبلغ ٢٥ ألف فرنك. احتفظ لي بعشرين ألفاً، وأعط والدتي ثلاثة آلاف، وخذ ألفين لك. أنا أعرف أنه ليس لديك دائماً عمل. كتبتُ إلى والدتي. أخبرها إنني بخير.

سلامي إلى عمتي ميتي، إلى عمتي آرام والأطفال. في المرة المقبلة سأرسل شيئاً للأطفال. احتفظ بالمال لي. إن شاء الله سوف أعود إلى البلاد. لا تنسني في دعائك.

احيّيك

ابن أختك

عبدو

●

كان كاتب الرسائل يترجم الرسالة بلغة الوولوف. جاء شحاذ دامع العينين، يردد، بينما يقوده طفل: يا الله، لوجه الله.

أعاد كاتب الرسائل، الرسالة، إلى دينج قائلاً:

«خمسون فرنكاً».

صعق دينج، إذ لم يبق لديه سوى عشرة فرنكات. إذ كلفه ركوب السيارة مع جرجي ميسا أربعين فرنكاً. «سأصرف حوالتي وأعود لادفع لك».

قال كاتب الرسائل وهو يرمق زبونه بنظرة شك:

«علام تظنني أعيش؟».

أخرج دينج الحوالة وأراها لكاتب الرسائل الذي قال مقتنعاً: «حسناً، سأنتظر».

غادرت المرأة البدينة، وهي تغمغم عن إضاعتها وقتها، بالرغم من نيلها ما جاءت تبغيه. بلغ دينج الشباك، استل موظف البريد قصاصة وقارنها بالإشعار:

- «إبراهيم دينج، بطاقة هويتك».

● يا رجل، ليس عندي بطاقة هوية. لدي وصل الضريبة، وبطاقة الانتخاب.

ـ أعطني شيئاً عليه صورتك. إجازة سياقة. شهادة خدمة عسكرية.

● ليس لدي.

ـ حسناً، اذهب وأخرج لك بطاقة هوية، إذن.

● من أين؟

كل ما تمكن رؤيته على الشباك كان كرة بيضوية سوداء عديمة الاتساق والكتفين الهزيلتين اللتين تسنداها. حين سأل دينج «من أين؟» نظر إليه الموظف. كان وجهاً صلداً. شرساً من الرقبة إلى فوق. استكان دينج تدخل جرجي ميسا قائلاً وهو يمد يده ببطاقة هويته، ناظراً إلى الموظف: «لديّ بطاقة هوية».

ـ هل الحوالة باسمك؟

لم يجب جرجي ميسا. ظلت يده ممدودة بضع دقائق، ثم سحبها. صرخ الموظف: «اذهب من هنا». «وأنت يا إبراهيم دينج، هل ستعطيني بطاقة هويتك أم لا؟».

أجابه دينج بصوت مرتعش:

● يا رجل، ليس لدي بطاقة هوية.

ـ اذهب، وأخرج واحدة.

● من أين؟

التقت نظراتهما. واعتقد دينج أنه رأى في عيني الموظف نظرة ازدراء. تألم. وخرج وعرق المهانة يتصبب منه. أحس كأن عضة مؤلمة قد انتزعت بضعةً من لحمه. لم يقل شيئاً. وتذكر القولة الشائعة بين عامة الناس في داكار: «لا تغضب موظفاً حكومياً. إنه ذو بأس شديد». قال الموظف ناصحاً، ومعيداً الإشعار إلى دينج:

«اذهب، وراجع شرطة حيك. سنحتفظ بالحوالة هنا لمدة أسبوعين».

ظل جرجي ميسا ودينج يحومان حول الشباك فترة. وفي طريقهما للخروج من مركز البريد، أمسك كاتب الرسائل، دينج، من مؤخر عنقه:

ـ أهكذا تدفع لي؟

● ماذا؟

ـ كيف؟ شغلي؟

قال دينج وهو يرد يدي كاتب الرسائل عن جلابيته:

● سل عما تريد بدون صياح أو شد ثياب.

تدخل جرجي ميسا: «يا رجل، لم نتسلم الحوالة بعد. إذ ليس لديه بطاقة هوية».

ـ هذا ليس من شأني.

قاطعه دينج بصوت عال:

● لا ترفع صوتك. الله يعلم أن ليس لديّ خمسون فرنكاً. أنا ذاهب إلى الشرطة. ساعود وادفع لك. أنا لا آخذ أبداً ما يملكه الآخرون. أنا مؤمن.

ـ مؤمن؟ بل أنت محتال. اذهب واشتغل بدل التظاهر بأنك مرابط.

زأر هكذا كاتب الرسائل، ثم عاد إلى موضعه. ماذا كان يجري؟ لم يعلم دينج. لكنه وهو يهبط درجات السلم، شعر بالمهانة.

أمام مركز البريد كان الشحاذون مصطفين مثل أواني زهور ذابلة، يمدون أيديهم وقدور استجدائهم، زاعقين بمصائبهم. أعاد دينج تهذيب ملبسه، مستفسراً من جرجي ميسا إن كان في الخلف وسَخٌ أو غضون.

● «لو ذهبنا إلى مركز الشرطة فهل يظل لدينا وقت كاف للعودة وتسلّم الحوالة؟

تفحّص جرجي ميسا السماء، وظل أشجار الدلب، وساعة جيبه.

ـ ممكن.

● أعني، مشياً على الأقدام.

ـ هذا يغيّر كل شيء.

مع أن حضور ميسا أعطاه مساعدة معنوية، إلا أنه كان يفكر بفرنكاته الخمسين. فلو كان وحده لاستطاع الذهاب إلى هناك والعودة بالحافلة.

● هل أنت آتٍ معي؟

ـ نعم.

أجاب ميسا مستغرباً من السؤال.

«سأجعله يمشي سريعاً. إنه طامع بالحوالة. أي نحس!». مشى جرجي ميسا وراءه. كان عرف من الدكان أن دينج تسلم حوالة. وقد ظل معه لأنه يريد الاقتراض منه. كان يطمع بخمسة آلاف فرنك في الأقل. بينما كان خارجاً من منزله قال لإحدى زوجاته:

«انتظريني. سأعود بمصروف اليوم».

قطعا باحة مركز الشرطة، متعبين، متصببين عرقاً. سقط جرجي ميسا، بدون تردد، على الدرجات المحيطة بالمبنى، وهو دارة قديمة على الطراز الكولونيالي حولت إلى مركز شرطة. هنا وهناك كانت مجموعات من الناس تقتعد الدرجات، مثرثرة. قرب أحد الأبواب جلس شرطيان مبتذلا البزة، وأرجلهما ممدودة أمامهما. أشار أحدهما بصوت منهك إلى الطريق:

«بطاقات الهوية؟ هناك...».

دخل دينج الممر.

«آ. . . إلى أين أنت ذاهب؟».

قفز دينج مجفلاً، لم يكن ما سمعه صوتاً بشرياً أو معتاداً. استدار دينج. لا شيء. تقدم، حذراً، بضع خطوات. .

«آ. . . أتكلم معك. إلى أين أنت ذاهب؟».

واضحٌ أن الصوت المجوف موجه إليه. قبضة محكمة أمسكت به.

«ألا تعرف أن الدخول هنا ممنوع؟».

انتابته رعشة غضب وحنق، شلّت لسانه وحركته. وعصب ظمأ حادّ حلقه. حاول جاهداً ابتلاع لعابه. رأى وجهاً متجهاً إليه بثلاثة أرباعه. كان وجهاً مقدوداً من الفحم، خشناً، غليظ الشفتين.

أجابه دينج بصوت ينم عن العصبية:

«أخبرني ذاك الرجل بأن بطاقات الهوية من هنا».

صرخ به الرجل: «اخرج من هنا».

عض دينج على شفته العليا، وعدّل من قلنسوة الحاج على رأسه، وانسحب مبطئاً، وهو يرتب جلابيته بعصبية.

حيّاه ميسا: «أعطني نقوداً لجوزة كولا».

نظر إليه دينج من أعلاه إلى أسفله، باحتقار، وأعطاه قطعة نقد. والتحق بالطابور.

قال له جرجي ميسا: «ما زال لدينا وقت لصلاة العصر». أمّ ميسا الصلاة. كان سريعاً. وعاد دينج إلى موضعه من الطابور، ومعه ربع الكولا. لم يتقدم الطابور. كانت ثمة همهمات ساخطة على بطء المعاملات.

وفجأة طغى صوت جرجي ميسا على الأصوات الأخرى، وأغرقها.

لقد صار مذّاحاً يمجد نبل المحتد لدى الشاب المرتدي ملابس أوربية: محط أنظار النساء، أكرم الرجال وأشجعهم وأنبلهم خلقاً. هكذا ظل جرجي ميسا يغني، منتقلاً من موضوع إلى آخر، في لغة وولوف عميقة. أخيراً استطاع أن يكسر مقاومة الشاب، بالرغم من عدم مبالاته بالمدائح التقليدية. انصت الحشد. أما الشاب المتأثر بوضوح، فقد حاول عبثاً تهدئة هذا التملق غير المناسب. وقد اعترف الشاب بهزيمته حين منح جرجي ميسا ورقة بمائة فرنك، وازداد صوت ميسا ارتفاعاً بينما كان الشاب يغادر المكان. سأله دينج بعد أن عاد الهدوء:

● أتعرفه؟

ـ أعرفه؟ أنت بسيط. كل ما في الأمر أنني سمعت من يذكر اسم عائلته، فبدأت انسج حوله.

● أظنك كنت تخلط الحابل بالنابل.

ـ إنه لم يعرف. كان سعيداً بأن يسمع من يتحدث عنه. أنت لا تعرف شيئاً عن الحياة هذه الأيام.

● لا.

اعترف دينج الذي أُخذ بتدني كرامة جرجي ميسا حين تظاهر بأنه مدّاح.

ـ حتى هو لا يعرف. نحن نضيع وقتنا هنا.

أضاف ميسا، بينما فكره مشغول في مكان آخر.

الآن جاء دور دينج.

خلف الشباك، بدا شاب مراهق، قصير الشعر، ذو نظارتين من طراز لومومبا منحنيا وجهه الفتيّ الهالة غير المحددة لمثقف.

ـ أي خدمة؟

● أريد بطاقة هوية.

ـ أعطني شهادة ميلاد، وثلاث صور، وطابعاً بخمسين فرنكاً. قال دينج وهو يشرح الأمر، مقرباً رأسه حتى لامست قلنسوته أعلى الشباك:

● اسمع يا بنيّ. عندي حوالة أريد أن أصرفها، فإن لم تكن لديَّ بطاقة هوية...

ومع حديثه هذا، أبرز الإشعار. تناوله الموظف. استدارت النظارتان نحوه، ورفّت أجفان العينين البعيدتين:

ـ هذا صحيح. لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. اذهب وأحضر شهادة ميلادك والصور والطابع، أيها الشيخ.

كان يتكلم بالفرنسية، وبصوت خالٍ من أي نبرة شخصية.

● أنت تريد قطعة من الورق لتعرف من أنا. لديَّ آخر وصل ضرائب، وبطاقة الانتخاب. ها هي...

أجاب الموظف وهو يدفع يد دينج بعيداً:

ـ لا فائدة أيها الشيخ، بدون الصور وشهادة الميلاد والطابع لا أستطيع أن أفعل شيئاً. إفسح المجال للشخص التالي.

استقام دينج. شعر بدوار. بحث حوله عن ميا.

«يا رجل... صديقك ذهب. قال إن عليه الذهاب إلى مكان آخر».

● ماذا؟

ـ سألني أن أخبرك.

● شكراً يا امرأة.

ثم هبط الدرجات.

●

«الذهاب إلى مركز البريد والعودة منه، ليست كالصعود إلى القمر. أين

هـو؟ بدلاً من أن يفكـر بنا وبـالأطفال، سيكـون يلعب كالغني الكـر... وسوف يتبدد المال من يديه كالماء من بين الأصابع. ربما استهوته فتاة! عـ... عديمة الحياء تمتص ماله مثل حليب أمها».

طوال العصر كانت ميتي تفكر على هذا المنوال. الجيران أرسلوا أطفالهم أكثر من مرة ليعرفوا إن كان دينج عاد أم لا. «ديدان طفيلية! ما إن يسمعوا بمال عند أحد، حتى ينقضّوا كالطيور الجوارح».

عاد دينج إلى بيته متأخراً. كان ذهب إلى المسجد. وجبة العشـاء مثل وجبة الغداء. بعد جوزة الكولا تشجعت ميتي بحضور شريكتها، فخاطرت قائلة:

ـ كيف الأمور؟

● لا شيء. احتاج إلى بطاقة هوية، ولهذا احتـاج إلى شهادة ميـلاد وطابع بخمسين فرنكاً وثلاث صور.

لم تصدقاه. تبادلت الزوجتـان النظرات. أرادت ميتي أن تتـابع الأمر أكثر، لكنها قررت انتظار اللحظة المناسبة. أخبرت زوجها أن أناساً يريدون رؤيته. وعيّنت عددهم.

● سيصـدقون أن لـدي مالاً، وأني أرفض أن أقـرضهم. باستـطاعتهم أن يسألوا جرجي ميسا، فقد كان معي...

تدخلت آرام محتجة:

«ذهب هذا البائس العجوز معك، فقط ليقترض منك». أخبرهما دينج كيف انتزع ميسا مائة فرنك من الشاب الساذج.

«فارقك كيلا يشاركك فيها. وأنت صرفت فرنكـاتك الخمسين. أي زمن!».

أعلن قادمٌ جديد عن نفسه بسيـل من التحايـا. كان مـدياني ديـاني.

...ب المراتان. وتحدث الرجلان عن هذا وذاك. وكان الحديث ينقطع ...رات صمت.

«جئت لأراك. فأنا في وضع سيء دقيق. جئت أطلب مساعدتك».

...ف ماديـاني دياني. لم يكن من السهـل كسر الجمود. عليـه أن يستخدم ...، حجة حجة. عليه أن يصارع، أن يذل نفسه أولاً لكونـه في هذه ...اصة. يجب أن تتوافق كلماته مع تعبير وجهه، ويجب أن يكون صوته أملس بـدون أي تشديـد على مقـاطع الـوولوف. يجب أن يستعـد للكلام بصوت أجش، مفسحاً المجال لسامعه كي يقع تحت سيطرة بؤسه. عليه أن يقسم بالقرآن والله، وأن يعد بأنه سيرد المبلغ غداً قبل طلوع الشمس، وهو يعرف جيداً أن الغد ليس ابن اليوم.

دينج فهم الأمر نصف فهم. فالجميع، بدون استثناء، يستخدمون هذا الأسلوب. أولاً، عليـك التوجـه إلى إحسـاس سـامعـك بـالتضـامن مـع البائسين، بكلمات ناعمة، تحرك مشاعر الأخوّة، حتى لو تبخرت في اليوم التالي. ظل دينج صامتاً. أما مادياني دياني فما زال يكرر معزوفته، والحجج التي سبق استخدامها.

● يشهد الله إنني لم أتسلم الحوالة. ربما غداً.

ـ لا حاجة إلى القَسَم. فأنا أصـدقك. أنـا في حاجـة فقط إلى خمسة آلاف فرنك، أو ما بمقدورك تقديمه. أنت أملي الأخير.

● بإمكانك الاستفسار من جرجي ميسا، فقد كان معي. ردد دينج بعطف.

ـ قـد يكون بمقـدورك أن تقرضني ثـلاثة كيلوات من الـرز. سمعت أنك تلقيت مائة كيلو.

● الناس كثيرو الكلام. ليس لديَّ إلا خمسة كيلو. ميتي! ميتي!

«دينج!»

أعطي مادياني ثلاثة كيلوات من الرز.

«يا عزيزي . . . لم يبق عندنا الكثير».

● لا تجادلي يا ميتي! كلما أخبرتك شيئاً حدث الأمر نفسه. قال مادياني دياني إنه لعائلتي يا ميتي. أقسم لك أن الأطفال لم يأكلوا طوال اليوم.

«تعرف يا مادياني أن بيتنا بيتك. أنا لا أخفي شيئاً عنك. سأذهب لأرى كم بقي عندنا. كما قال لك إنه لم يتسلم الحوالة».

من جديد دخل الرجلان في توافه الكلام، وهي توافه من ذلك النوع الذي يردده الناس الذين يعرفون بعضهم، عدة مرات في اليوم الواحد. إنها توافه يجدونها نافعة وإن لم تكن أكثر من طريقة لملء فراغ ضجرهم.

أخيراً، مضى مادياني دياني بنصف كيلو رز.

ميتي وشريكتها لم تفهما زوجهما. كان كرمه غبياً. الحي بأكمله سيتقاطر عليهم فلا يبقى شيئاً عندهم. الطعام مملكة النساء، وقد قررتا الدفاع عنها. تشاورتا في الأمر، واتفقتا على أنهما هما اللتان تقرران من تنبغي مساعدته ومع أن أجيالاً من الانقياد قد جعلت النساء في هذا الجزء من العالم مطيعات مستسلمات، إلا أنهن تعلمن أثناء ذلك أن باستطاعتهن الحصول على كل ما يردنه من الرجال.

أرباب عوائل آخرون جاؤوا بدورهم، لكنهم خرجوا فارغي الأيدي بالرغم من توسلاتهم.

في اليوم التالي، وقبل طلوع الشمس، ذهب دينج كعادته إلى المسجد ليصلي الفجر. وحين عاد كانت المرأتان قد أتمتا عملهما الصباحي. كان دينج يحتسي شاي الكنكليبا حين وصل «بايدي». كان هيكلاً عظمياً يمشي، ذا ملامح ناتئة. ما كان بمقدوره المجيء أمس. قال وهو يشارك دينج فطوره إن مجيئه اليوم هامٌ جداً. لكن دينج لم يدعه يكمل ما بدأ، إذ قال بمنتهى الأسف والأسى: «يشهد الله إنني لم أتسلم شيئاً». أما ميتي التي كانت حاضرة فقد أضافت: «كنت أعتزم، يا بايدي، المجيء إليكم لآخذ شيئاً».

هادر بايدي المكان، منحوت الوجه، متوتر الرقبة، من الامتعاض. نظرت ميلي، المسرورة بنجاحها، نظرة عارفة إلى شريكتها.

المسافة بين منزل دينج ودار البلدية خمسة كيلومترات في الأقل. أزعجته فكرة البعد. يذهب إلى هناك على قدميه!

آه لو كان لديه عشرون فرنكاً فقط! من بمقدوره أن يقرضه؟ في وضعه الحالي لن يساعده أحد. فكر بجرجي ميسا وفرنكاته المائة أمس الأول. منزل ميسا في الجهة المقابلة من طريق يأسه. عرف جرجي ميسا صوت دينج وهو يتبادل التحايا مع زوجاته، فخرج إليه. سحب ميسا، دينج، من المنزل، وأقسم بالله العليم أنه لم يتبق لديه شيء، بل إنه كان في طريقه إلى دينج حقيقة. وحين أخبره دينج بأنه ذاهب إلى دار البلدية اعتذر بالروماتزم.

انطلق دينج في خطى هينة. خمسة كيلومترات وأكثر! الحشد المجهول ينطلق مسرعاً في الاتجاه ذاته. أبواق السيارات، ضجيج الدراجات النارية، أجراس الدراجات الهوائية، قرقعة الأحذية البالية، وقع حوافر الخيل رافقت الحشد إلى حدود ما كان يسمى «الحي الوطني»، حيث يتفرق الحشد في اتجاهات شتى. تلاشى الضجيج تدريجاً، لكن ستار الدخان الرمادي ما زال معلقاً في الهواء. خارج المدخل الرئيسي لدار البلدية، وعلى الدرجات، اجتمع أناس كثار. كانت الأيدي تتصافح، فرّاش عجوز، متكبر مثل ملك متوج، ينتصب هناك.

«شهادة ميلاد؟ مكتب التسجيل، هناك» أجاب الفراش عن استفسار دينج مشيراً بذراعه الممدودة إلى الاتجاه. فكر دينج وهو يشاهد الطابور الطويل «طابور آخر». وقف في النهاية. كان الحديث بلهجات عديدة يطن حوله. أخذ يتحدث مع الشخص الذي يسبقه، وهو رجل هزيل على وجهه ندوب من علامات قبلية. هذه هي المرة الثالثة التي يراجع فيها للأمر نفسه. إنه عامل بناء، وقد وجد عملاً في موريتانيا. كان عاطلاً مدة عامين. أراد

دينج أن يعرف كم من الوقت يستغرق الحصول على شهادة ميلاد.

قال عامل البناء: «يعتمد الأمر على معرفتهم إياك، أو أن لديك صلات. أما إذا لم يكن هذا ولا ذاك فما عليك إلا أن تحاول، شريطة ألا تيأس. وإن كانت لديك نقود سارت الأمور بسرعة». وثق دينج به، فالواضح أن عامل البناء خبير. شرح دينج له أنه بحاجة ماسة إلى شهادة ميلاد. ليس صعباً الحصول على شهادة ميلاد. سيكون اسمه في أحد السجلات. لكن عامل البناء أضاف في النهاية: «ومع هذا فمن المفيد أن تكون لديك صلات هذه الأيام».

الثقة تؤدي إلى الثقة، هكذا أخذ الحاضرون يتحدثون عن مظالمهم. اثنان من القادمين أخيراً شاركا في الحديث. أحدهما، وهو الأقوى بنية، والذي جاء للحصول على شهادة ميلاد لابنه، قال إن الموظفين غير مبالين، ويعوزهم الشعور بالواجب إزاء الجمهور. ثم صمت الجميع حين اقترب منهم أحد الأشخاص. اقتسم عامل البناء قطع كولا. لقد نال ما أراد. وحينما كان يغادر صافح الجميع.

ثم جاء دور دينج.

«يا رجل دعني أتنفس قليلاً». قالها الموظف وهو يشعل سجارة من نوع الجمل. وبدأ حديثاً مع زميل له في الطرف الآخر من المكتب. استمر التوقف. خلف دينج ارتفع صوت امرأة محتجاً. هتف الموظف: «اسكتوا» وهو يعود إلى كرسيه بإشارة سيئة حادة. ثم سأل دينج بصوت حاد لدغ أذنيه: «أنت! ماذا تريد؟».

قال دينج وقد انقطعت أفكاره: أنا؟

ـ دورك! أليس كذلك؟ ماذا تريد؟

شحاذٌ ذو عمامة عالية ومسبحة انزلق بينهما كسمكة الحنكليس، هاتفاً: صدقة لله. لوجه الله!

صرخ به الموظف: امش من هنا (بالفرنسية أولاً ثم بالوولوف) يا إلهي، أنت هنا صباح مساء تمزق طبلات آذاننا!

انسحب الشحاذ مستكيناً.

ـ حسناً، أنت... ماذا تريد؟

● أنا؟ شهادة ميلاد.

ـ أين ولدت، ومتى؟

● هذه أوراقي.

ـ لا أريد أوراقك. أريد تاريخ ميلادك ومكانه.

فوجىء دينج بخشونة الرجل ونبرة صوته، فتلفت حوله طالباً العون، وعلى وجهه تعبير خوف. أبرز أوراقه ثانية.

قال الموظف وهو ينفث سجارته: أنا أنتظر يا رجل. واشتكت امرأة وراءه: اسرع. أسرع. ألا يمكن لأحد أن يساعده؟

تقدم رجل ذو سترة مموهة فأمره الموظف بالفرنسية: عد إلى مكانك.

أجابه الرجل: تكلم بأدب.

قال الموظف: ماذا؟ لا تلفت الأنظار!

قال الرجل: أرجو أن تلاحظ أنني مؤدب في الأقل.

ثم استدار إلى دينج وقرأ للموظف بصوت عال، من أوراقه: إبراهيم دينج، مولود في داكار، حوالي سنة ١٩٠٠.

ـ الشهر. أريد الشهر.

● أخبرك، حوالي ١٩٠٠.

ـ وتظن أنني سأبحث عن الشهر؟ أنا لست موظف ملفات.

كان تبادل الكلام باللغة الفرنسية. وشيئاً فشيئاً حمي الوطيس، حتى اندلع شجار عنيف بين الموظفين الإثنين والجمهور. كان الجميع يتكلمون في

وقت واحد. ثبت الرجل ذو السترة المموهة في موقعه، وأخذ يلوم الموظف الشاب على قلة تهذيبه ووعيه المهني. واتخذ دينج شاهداً، لكن دينج لم يتكلم. فهو مع إقراره بعدالة الاتهامات التي وجهها الرجل إلى الموظف، إلاّ أنه لا يرى فائدة في الأمر. أخذت الأمور مجرى حاداً، إذ هاجمت المرأة عقلية الإدارة منذ الاستقلال. كانت تتكلم بصوت عال: فمنذ أسبوع، وهي تأتي صباحاً ومساءً، ولكن سيكون مخطئاً كل من ظن أنها ستدفع رشوة أو ستفتح ساقيها.

وفكر دينج: «إنها بلا حياء». لم تكن لديه الشجاعة ليسكتها، ولا لدى الآخرين. أخيراً جاء فراش وهدأ المرأة، مما كان له أثره في الجميع، فهدأت أصواتهم. بدأ الموظف ثانية: تاريخ ميلادك.

قال الرجل ذو السترة المموهة: إبراهيم دينج، مولود في داكار، حوالي سنة ١٩٠٠.

استفسر الموظف ساخراً: كم شهراً في السنة؟

أجاب الرجل زاعقاً في وجهه: اثنا عشر.

ـ إذن، في أي شهر ولد؟

تدخل الفراش العجوز موجهاً الكلام إلى دينج:

«اسمع يا صديقي. اسمع جيداً. يجب أن يكون في حيك شخص في نفس تاريخ ميلادك...».

قال دينج مقاطعاً: إنه مكتوب هنا. لدي بطاقة انتخاب. والتاريخ عليها.

قال الرجل العجوز: سامحني.

واحتك بالرجل ذي السترة المموهة، الذي نظر في عيني الفراش بريق الجنون الذي يتميز به العنيدون.

خاطب الرجل العجوز، دينج، الذي يبدو أن ملابسه أثرت فيه، وكان يتحدث بالفرنسية:

لا تُغرَّ ببطاقات الانتخاب. لن يهتم أحد بالتصويت. أترى هذه السجلات كلها؟ هنالك المزيد في القبو. يجب أن يراجعَ كل سجل منها، واحداً واحداً.

قال الرجل ذو السترة المموهة: ألا يمكن أن يترك اسمه على قطعة ورق، ليقوم أحدٌ بالبحث عنه؟

ـ أتريد أن تعلمنا شغلنا؟ إن فعلنا ما تقوله، فسينتظر أكثر من شهرين.

● رقم قياسي!

قالت المرأة، مدلية بدلوها: اسمع نصيحته. ابحث عن شخص في نفس تاريخ ميلادك.

كظم دينج رغبة في أن يخبرها أن الخطأ كله بسببها. وهمس الفراش العجوز في أذنه: أو ابحث عن شخص متنفذ.

«ولن أذهب هنا؟ إمام المسجد؟ لا. إنه لا يعرف أحداً. هذا ما يقوله. في هذه البلاد لن تبلغ مكاناً إن لم تعرف شخصاً متنفذاً. والدليل! منذ أخرجوني من العمل وعدوا بإعادتي. كل الذين عملت معهم عادوا». كان يفكر.

من ساحة الاستقلال سار حتى سوق صندقة:

في تقاطع الطرق، تلفت باحثاً عن شخص يعرفه ليقترض منه عشرين فرنكاً. كل هذه الوجوه المغلقة مجهولة لديه. كل هذه العيون والأفواه والآذان تبدو بلا رحمة. لمن يذهب؟ لمن يتوجه؟ أهذا المسرع جنبه؟ لا... ليس بمقدوره التصرف مثل جرجي ميسا. استرعى نظره شابٌّ ذكّره بابن عم بعيد يسكن في الجوار. وتبلورت في ذهنه فكرة زيارة ابن العم. قال

لنفسه «سيبدو الأمر كما لو أنني جئت متطفلاً». كان تردده بسبب أن ابن العم البعيد الذي عاد من فرنسا مؤخراً، متزوج بامرأة بيضاء. لكن فكرة زيارته الحّت عليه حتى تغلبت سوف يطلب منه عشرين فرنكاً فقط، ولن يرفض ذلك. قال الصبي وهو يدخل دينج في غرفة الجلوس:

«سيدي عاد لتوّه».

كان بالغ التأثر، تنهشه فكرة التطفل. وتنقلت نظرته من شيء إلى آخر. كل شيء هنا يفرض الصمت لم يجرؤ على الجلوس. تمنى لو يرى ابن عمه البعيد فقط، لا زوجته. دخل رجل في حوالي الثلاثين، وما إن رأى دينج حتى سارع إلى الترحيب بـ «العجوز» مستفسراً عن أخبار عائلته وأقرباته. ونادى زوجته وطفليه ليقدمهم.

لم تتذكر السيدة هذا العم. كيف بمقدورها أن تضع اسماً لكل تلك الوجوه التي رأتها مرة واحدة، قبل ثلاث سنين، والتي اختفت من أفقها مذّاك؟ ألم يقل زوجها أثناء حديث مع المتزوجين زواجاً مختلطاً: «هنا، لا يزورنا أقرباؤنا وأنسباؤنا إلا حين يريدون شيئاً. إذن، لماذا نزعج أنفسنا بالعادات الاجتماعية الإفريقية؟».

اعتذر دينج عن دعوتهم لتناول الطعام. قال إنه جاء فقط ليتفقدهم. وحين انصرف رافقه ابن العم البعيد إلى الباب. حين وجد دينج نفسه وحيداً مع ابن العم أفصح عن طلبه. دخل ابن العم البيت وعاد بورقة مائة فرنك، وشيك بألف فرنك. إذ ليس في بيته نقود. شكره العم ووعده بزيارته في مكتبه، الصباح التالي.

في غرفة الجلوس وجد ابن العم، السيدة، عابسة: «النقود هي كل ما يفكرون به، وهذا ما أراده».

لقد فهم شعور زوجته، ونظر إليها بحنان. إن عاطفة المسؤولية المتبادلة التي تساعد أعضاء المجتمع وتسندهم في وقت الحاجة، هي عاطفة غريبة

على عالمها.

«صعبة علينا، لكنها أصعب عليهم».

تركت السيدة الغرفة.

بعد أن تُرك وحيداً، فكّر ابن العم البعيد: كيف يستطيع أن يُفهم أسرته بأن عليهم أن يزوروه في مكتبه فقط؟

●

في منطلق الحافلة، صرّف دينج ورقة نقوده، مما سيجعله يتفادى الحاجة إلى إبراز ورقة بمائة فرنك فيثير طمع قريب يصادفه، أو يلزمه بدفع أجرته. كانت الحافلة ممتلئة. إلى جانبه يجلس عجوز متداع متغضن الوجه يتحدث إلى رجل حسن الهندام مقابله.

قال العجوز بلهجة الكايور: «لم أر الرجل الذي تتحدث عنه».

سأله الآخر: «هل أعطيته له؟».

● يريد كثيراً.

ـ كل واحد له سعره. المهم أن تحصل على ما تريد.

● إلى أين تسير هذه البلاد؟ كلما أردت شيئاً عليك أن تدفع.

ـ تكلم بصوت منخفض.

أرسل الأصغر سناً نصيحته، ثم نظر إلى المسافرين الآخرين حوله.

لم يفت دينج من حديثهما شيء. كان متأكداً أنه كان على العجوز أن يرشو أحداً للحصول على خدمة. ماذا؟ آه لو عرف. راقبهما بين أهدابه. ولد الأصغر سناً الثقة في نفسه، بسبب أناقة ملبسه. كما أن له الجبين الناصع للمؤمن. جمع مساعد السائق الأجرة. أعطاه دينج قطعتين من ذوات العشرة فرنكات.

في موقف جومالو نهض العجوز ورفيقه. دينج أيضاً فعل ذلك، وسار أمامهما برهة.

«أعذروني أيها الإخوة... سمعتكما تتكلمان قبل قليل».

أظلم وجه الرجل الأصغر، من الخوف، وقال:

«لم نقل شيئاً، أنا وأبي. أنت مخطىء».

وأضاف الأب: «هذا صحيح يا رجل. لقد خدعتك أذناك. آخرون في الحافلة كانوا يتكلمون».

ـ لا تقلقا... أنا لست من تظنون.

● يشهد الله أننا لم نقل شيئاً. نحن مسلمان. أبي من الشمال. جاء هنا ليراجع المستشفى. هذا كل ما في الأمر. لقد دفعنا ضريبتنا. خذ هذه واشتر بعض الكولا.

تحيَّر دينج. كيف تجعل الناس يصدقونك؟

وضع ابن العجوز ورقة ذات مائة فرنك في يده، وقبل أن يجد متنفساً كان العجوز وابنه في آخر الطريق. وقف هناك، مذهولاً، ممسكاً الورقة المالية بأطراف أصابعه.

●

كانت الساعة تشير إلى ما بعد الثانية حين اتجه عبر الشارع الرئيسي نحو المصرف. على الرصيف يتدفق سيل بشري بدون انقطاع، والباعة الجوالون يروحون ويغدون وهم يبيعون نظارات شمسية وأزرار أكمام وأطوال قماش وأمشاطاً وسراويل مخيطة وتماثيل صغيرة وأقنعة، وهناك صباغو أحذية صغار جداً، ونساء يبعن الفول السوداني، وعميان. وعند كل مائة ياردة يجلس شاهد بشري على الأرض مغنياً. جذوع بشر على عجلات يدفعون أنفسهم بين أرجل المارة. خارج مكتبة إفريقيا، دنت امرأة محتشمة الملبس من دينج

إنها بحاجة إلى عشرة فرنكات كي تعود إلى منزلها في يوف. سرقوا كل ما لديها. لم يكن في صوتها وتصرفها ما يوحي بأنها عاهرة اعتيادية. عطف دينج عليها وأعطاها خمسة وعشرين فرنكاً، مكرراً لنفسه دعاءه المألوف: «عسى الله يبعد محنا مع هذه الفرنكات الخمسة والعشرين». قال لنفسه وهو يواصل سيره: «قد أعرف أسرتها. أين عقلي؟ أنا لا أعرف اسمها، لكني متأكد من أني سأتعرف عليها ثانية». شكرته وتمنت له كل سعادة. لم يكن المصرف قد فتح بعد. الموظفون ينتظرون عند المدخل المخصص لهم. وبينما كان ينظر إلى الناس المتجمعين، شاهد وجهاً مألوفاً. فقرب أحد الأعمدة لاحظ رجلاً بديناً، يرتدي بذلة متقنة الخياطة، ويحمل حقيبة يدوية كبيرة. تفحصه طويلاً. أحس الرجل بأنه مراقب. اتجه دينج نحوه.

أجابه الرجل «إن كانت هنا نقود، فلا تخش شيئاً، سوف يدفعون لك».

اقترب رجل آخر، كان نحيفاً، سترته التويد أوسع مما يلزم، ومتهدلة عند كتفيه. تحدثا بالفرنسية التي لم يفهمها دينج.

ـ الرجل الذي أعطاك الشيك لمَ لم يجعله قابلاً للدفع إلى حامله؟

● ماذا تعني بحامله؟

لم يفهم الأمر. رتب مع الرجل ذي السترة التويد أنه سيقدم نفسه إليه حين يفتح المصرف. وفي الوقت نفسه عليه أن يستدير إلى الناحية الأخرى من المبنى ليدخل من الباب العام. عندما فتح الباب تدفق حشد داخل قاعة المصرف. دخل دينج وجلس خافق القلب. بين حين وآخر كان صوت ميكانيكي حاد ينادي رقماً، فيتجه رجل أو امرأة إلى أحد الشبابيك.

جاء شخص فرنسي وجلس قبالته. أمسك الخوف بمعدته. لاحظ نظرة الفرنسي تتملى وجهه وذراعيه المرتعشتين. غمره شعور غريب مبهم، مثل الشعور بالإثم. وجعله خوفه يحس بأنه يرتكب خطأ ما. تلا آيات من

القرآن. أطلق الصوت الميكانيكي رقماً، فنهض الفرنسي. تبعه دينج بعينيه، وندت عن صدره آهة ارتياح. بعثت يد استقرت على كتفه رعدة في صلبه.

ـ أيها الأخ، أنت مطلوب هناك.

خلف النضد همس له الرجل ذو السترة التويد: «هذا رقمك، اسمعه جيداً، ٤١، اطلب من المحاسب أوراقاً من فئة ١٠٠ فرنك».

عاد دينج إلى مقعده. ، مردداً مع نفسه ٤١، ٤١. ولم يمض وقت طويل حتى جاء دوره ليتقدم إلى الشباك. سأله المحاسب كيف يريد الألف فرنك. وبينما كان يغادر المصرف أوقفه الشاب ذو السترة التويد. قال دينج: «الحمد لله. كل شيء على ما يرام. شكراً لك».

ـ أيها العم (ليس من قرابة بينهما) أرجوك أن تفكر بزميلي، فبفضله حصلت على نقودك.

استفسر دينج: كم؟

ـ أنت رب أسرة. بدلاً من أربعمائة فرنك، أعطه ثلثمائة. فكر دينج بأن الرقم مرتفع.

ـ تذكر أن زميلي كان يخاطر. فمن أجل فرنكاتك الألف كان يخاطر بمستقبله ومعيشة أسرته.

بعد أن سمعه دينج يلح على مخاطرة زميله، أعطاه الثلثمائة فرنك. وعبر عن امتعاضه من الناس الذين يريدون مالاً لقاء أي خدمة صغيرة يؤدونها. لكنه يعرف أيضاً أن أناساً مثله سيلقون متاعب جمة لولا مساعدة كهذه.

في طريق عودته، والنقود بجيبه، نظر إلى واجهات الدكاكين المليئة. خارج السرفيس دي دومين جذب انتباهه جمهور متجمع حول شحاذ. كان الشحاذ ذا عينين غائرتين فارغتين، وخدين هزيلين، وصوت قوي حاد

يخترق المسامع. تحسس دينج جيوبه.

سمع امرأة تقول قربه: «يا أبي، يا أبي، أرجوك! ساعني يا أبي، أنا غريبة في ناداكارو. جئت هنا لأعالج زوجي، وقد توفاه الله. والآن يجب أن أعود إلى قريتي. أتوسل إليك باسم الله ونبيه محمد». لم يكن في صوتها المزماري المطرد ما يثير الرأفة أو العطف، فقط بحيرة الدموع اللامعة المتحدرة من عينيها.

تنحى دينج خطوتين مفسحاً المجال لمرور شخصين.

هتف دينج: لقد رأيتك للتو. بل أعطيتك خمسة وعشرين فرنكاً. كان ذلك أبعد قليلاً من هذا المكان... هناك» كان دينج مقتنعاً بأنها هي المرأة نفسها. العينان ذاتهما، والوجه النحيل نفسه. ملابسها فقط اختلفت. صرخت ويدها على صدرها: «أنا؟ ربما ظننتني امرأة أخرى، يا رجل!».

● لا! لا، يشهد الله.

أخذ الناس يوجهون إليهما نظرات عداء.

ـ اذهب في سبيلك، يا رجل! لستَ كما تحسبني. أنا امرأة شريفة.

● إذن كيف حصل الأمر؟ الآن حسب. على هذا الرصيف نفسه؟

قاطعته المرأة ثانية:

ـ اذهب في سبيلك. أنت تبدو مرابطاً. ولم أكن لأصدق أبداً ذلك من شخص محترم مثلك.

جمجم دينج:

● إن سكتُّ أنا، فعليك أنت أيضاً أن تلزمي الصمت.

ـ تركتُ أباً مثلك في البيت. يلبس مثلك. يجب أن تخجل لملاحقتك النساء اللواتي تلقاهنّ.

ومضت مبتعدة.

نظر دينج حوله مرتبكاً. سمع أناساً يلعنونه. تصبب عرق الخجل من جبينه. سحبه من ذراعه رجل في مثل سنه يرتدي بزة سائق بيضاء، وقاده بعيداً عن الحشد. «إن أمتهن الشرفاء التسول، فكيف ستكون النتيجة؟» لم يردّ السائق. لكنه ترك دينج بعد مسافة قليلة، ومضى في سبيله.

لا معنى للحاق بالحافلة. سوف يذهب بنقوده المتبقية إلى المصور ويشتري طابعاً. في شارع بليز دياني تفحّصَ شبابيك المصورين. وفي أحد الأستوديوهات كانت امرأة سورية ذات وجه متعب ورأس مغطى بمنديل أبيض. سألته بلهجة الوولوف:

ـ «ماذا تريد يا رجل؟ هل أخذت صورتك؟».

● فقط أريد أن أعرف كم تكلف صور الهوية.

وبدون أن تقوم من مقعدها، أخبرته المرأة السورية بالسعر. فكر أن السعر عالٍ جداً. خمسة أو ستة آخرون طلبوا السعر نفسه. في الأخير ذهب إلى أمبروز. أمبروز، وهو شخص ضئيل مضحك المشية، لاقاه عند باب الأستوديو الذي هو كاراج مهجور. أجلس دينج دون أن يترك له فسحة حتى للتنفس. أما مساعده الذي اعتاد على أسلوب سيده، فقد أحكم المصباحين، وكانا جد ساطعين بحيث أرغم دينج على إغماض عينيه. «لا تغمض عينيك، يا رجل. أليست لبطاقة هوية؟ حسناً. عرفت ذلك منذ رأيتك. ارفع ذقنك. تمام! مستعد. حسناً. خلاص».

ووجد دينج أنه في الناحية الأخرى من الستارة. أخذ أمبروز ماتي فرنك منه، قائلاً: «غداً». في الليل، وقد نسي ما مرَّ به من متاعب، رقد دينج مفكراً في الأيام السعيدة الآتية، الأيام المطمئنة هنأ نفسه على مثابرته المشهودة. تقلب في فراشه. فكر بجواب إلى عبدو يمليه على كاتب الرسائل. فجأة تذكر الخمسين فرنكاً. وأملى:

«تلقيت رسالتك والحوالة. منذ شهور ونحن قلقون لغيابك. الكل كان قلقاً عليك. في أحد الأيام أخبرنا أحد الأصدقاء أن عبدو ذهب إلى فرنسا. ليس حسناً ما فعلته. كيف بمقدورك الذهاب بدون أن تخبرنا، أنا بخاصة؟ أنت تعرفني وكان بإمكانك أن تخبرني ربما عارضت. لسبب بسيط هو خوفي عليك. لكني أعرف أنك ابنٌ بارّ وستنال بركتي، خاصة لأنك ذاهب هناك كي تعمل. هنا لا عمل للجميع. أنا سعيد، سعيد جداً لأنك وجدت عملاً.

إذن أنت في بلاد أجنبية. أنت وحيد بلا ناصح. لا أحد يأمرك أو ينهاك. أنت أبٌ لنفسك وأم. ابتعد عن صحبة الأشرار. فكر أيضاً بأنك يجب أن تعود. ليس لأمك ابنٌ سواك، وثمانية أطفال تطعمهم. حاجتها قبل حاجتك. الحياة هنا تزداد صعوبة.

ما إن تسلمت حوالتك حتى فعلت ما أوصيتني به. أرسلت ثلاثة آلاف فرنك إلى والدتك. أتوقع أن أسمع عنها خلال أيام، وربما أتت بنفسها».

احتار دينج، هل يشير إلى ابن العم البعيد. الأفضل ألا يقول كل شيء. عاد إلى الإنشاء الذهني لرسالته: «أنا احتفظ بعشرين ألف فرنك لك، كما أردت. أعتقد أن عليك إرسال كل نقودك إليّ. فإن فعلت ذلك اشتريت لك منزلاً تسكنه بعد عودتك. الشباب لا يدوم إلى الأبد».

لقد أملى الكثير. وفي تلك الليلة، وهي ليلة آرام، تلقته زوجته مرتين.

في الصباح التالي ذهب إلى مكتب ابن العم البعيد. أوصله هذا إلى دار البلدية بسيارته الميني. قال له أن ينتظر عند الفراش العجوز الذي عرفه. تحدث الإثنان. بعد قليل خرج ابن العم البعيد مع شخص آخر. فكر دينج «يبدو كبيراً». راقبهما من مسافة، ودهش للألفة بينهما. أشار ابن

العم البعيد إليه بإصبعه. كتب تاريخ ومكان ولادة إبراهيم دينج على قصاصة ورق.

وقال له صديق ابن العم البعيد: «تعال بعد غد، يا عم، واصعد إلى الطابق الأول».

انتهى الأمر. لم يكن بمقدور ابن العم البعيد أن يوصله بسيارته إلى بيته، لكنه أنزله عند تقاطع صندقة. وحينما افترقا أمسك دينج بيديه وفتح راحتيه وهو يتلو آيات من القرآن. تركه ابن العم البعيد يفعل ما يشاء على طريقته. من زاوية عينه، شاهد شرطياً يقترب منهما، متحسساً جيبه الصدري. حين بلغهما الشرطي نظر إلى الأيدي الأربع، وإلى وجه الرجل، ثم إلى المرابط (إذ حسب دينج مرابطاً)، وضم يديه إلى أيديهما. أمسك دينج بأحد إبهاميه. رفع جبهته وتحركت شفتاه. اثنان من المارة توقفا، ومدا أيديهما. بعد أن أتم دينج تلاوته، نثر اللعاب حوله. أجاب الجميع: آمين! آمين!

ومسحوا وجوههم، وهم يتفرقون.

عاد دينج إلى بيته مبتهجاً. وفكر كيف أنه سيحصل على شهادة ميلاده بعد غد، وعلى صوره عصر غد. وكان نسي أمر الطابع.

●

لم يكن لديه ما يفعله بقية اليوم. اليوم التالي عليه أن يذهب إلى عماد ثم إلى جنازة. لا يمكنه الخلاص من هذا. بعد احتفالات المسجد، أدى زياراته إلى الأقرباء والأصدقاء يوم السبت، لأسباب غير واضحة تماماً، قرر عدم الذهاب إلى دار البلدية، مؤجلاً الأمر إلى الإثنين.

عصراً، ذهب إلى امبروز المصور. كان الدكان مغلقاً حينما عاد إلى البيت، وجد أخته الكبرى، والدة عبدو، قد وصلت. كانت امرأة بدينة،

عريضة العجيزة. كان وجهها مغضناً غضوناً عميقة من رياح الكايور، أما بياض عينيها فقد تحول بنياً. بعد انتهاء التحيات، شرحت بصوتها الخشن أسباب زيارتها. إنها تريد المغادرة غداً. لقد تسلمت رسالة ابنها فجاءت لتأخذ الثلاثة آلاف فرنك. حدثها دينج عن جهوده لاستحصال الحوالة، وأن الأمور تسير سيراً حسناً. المسألة مسألة أيام. يومين أو ثلاثة في الأكثر. بل إنه ذهب حتى إلى ابن العم البعيد الذي كان بالغ التهذيب معه.

● «هم... م... م... الابن الذي ينسانا الآن، وأنا كنت أمسح مؤخرته!».

ـ يجب أن نفهم أن...

● ألم يهجرنا؟ من حملته وأرضعته؟ لأنه صار أجنبياً. لا تتحدث معي عنه. يعرف أننا في وضع سيء. ما تزال لي كرامتي. سأغادر هذه الدنيا بدون أن أراه.

ـ وزوجك؟

● في الغابة. أنا وحيدة مع الأطفال. ليس لدينا شيء. لا شيء على الإطلاق. عليّ أن أستدين يمنة ويسرة. حتى هذه الملابس التي أرتديها، بعضها يعود إلى شريكتي الثانية.

كان غضبها واضحاً من طريقة كلامها.

أحضرت ميتي طعاماً للأخ والأخت. وحينما كانا يأكلان أصرت على وجوب أن يدبر دينج ألفي فرنك في الأقل، كي تستطيع المغادرة غداً. وقالت في الختام: ليس لدي ما اشتري به تذكرة عودة.

ـ «الرز الذي أكلتِه اقترضته بسعر باهظ. لم يبق لي سوى مائتي فرنك».

● «كما استدنت بعد تسلمي رسالة عبدو. ووعدتهم برد الدين بعد عودتي. كيف أستطيع العودة فارغة اليدين؟ أمرٌ غير ممكن. اذهب وجد

أصدقاءك.

ـ أخشى أن الأوقات قاسية. الحياة لم تعد كما كانت. لم يعد بإمكانك الاعتماد على الجيران. في هذه الأيام لا يهتم الواحد إلا بنفسه.

بذل دينج كل جهده لتهدئة أخته. لكنها انطلقت في خطبة مريرة. تحدثت عن الحياة في البلد، حيث كل شهرين من العمل الشاق يعقبهما شهر اعتيادي يجد فيه المرء ما يأكله فقط، ثم تأتي ثلاثة أشهر من المجاعة والموت. حاول دينج عدة مرات إسكات أخته. «هذه الأمور لا تقال إلا في غرف مغلقة ومع أناس موثوقين». لم تترك شيئاً، ولا أحداً.

كانت ترفع صوتها، وتندب زمناً لم يعد فيه رجال شجعان كما كان الأمر في الماضي.

جاءت آرام لنجدة زوجها. دعت نسيبتها، بذكاء، إلى أن ترتاح بعد رحلتها المتعبة.

قال دينج: سأذهب لأرى ما أستطيع أن أفعل. أخبرته: لا تعد صفر اليدين.

وبينما كان يغادر، سحبته آرام إلى جانب وقالت: حاول أن تبيع هذه.

كانا قرطين ذهبيين أهداهما لها ذات يوم.

«سأجد شيئاً بدون هذين القرطين. احتفظي بهما». «الوقت ليل. إن لم تجد شيئاً اذهب إلى مبارك، فهو لا يعرض بأنفه عن الذهب».

خارج البيت، فكّر: ممن يقترض ألفي فرنك؟

لم يخطر بباله اسم أو وجه. عرف منذ البداية أن لا أمل له. لن يساعده أحد. من العسير أن يجد من يقرضه مثل هذا المبلغ الكبير في أوقات مثل هذه. قرر أن يمشي مشواراً طويلاً ثم يعود إلى البيت. غداً سيرى. كان يعرف عناد أخته. سوف تنفث عليه حمم غضبها.

من الظلال برزت الملامح الشجية لنوجوي بينيتو، ملتفة بردائها. كان يصحبها أحد أحفادها، وهو صبي ذو تسعة أعوام.

تعرفا على بعضهما في الظلام. كانت في طريقها إلى بيت إبراهيم. هكذا قالت (على خلاف العادة كانت تستعمل الإسم العائلي في المناسبات فقط). سألت إبراهيم أن يجلس إلى جانبها على الطابوق.

«كنت في طريقي إلى بيتك كي أسألك إقراضي شيئاً من الطعام، أو شيئاً من النقود. أنا محتاجة إلى خمسين كيلو رزه».

حزر دينج الأمر منذ التقيا. تغلغل صوت المرأة العجوز ببطء في دماغه.

قطع بائع متجول الطريق، وهو يغني:

مسحوق يقتل البراغيث
والخنافس والصراصير
مسحوق يهديك ليلة هادئة

«أنا ذاهب إلى مبارك. سأمرّ عليك حين أعود». وغمغم دينج لنفسه: «لا فائدة من قولي لها إني لا أملك شيئاً». افترقا.

شعاعا ضوء عريضان من الدكان ينعكسان على الرمل. عند باب إلى اليمين جلس ثلاثة رجال جلسة هانئة حول موقد ينضج عليه شاي النعناع. كانوا أصحاب دكاكين الشارع. كانوا يتجاذبون أطراف حديث ممتع.

حياهم دينج ودخل الدكان، حيث كان مبارك مع زبون. سأله صاحب الدكان على سبيل التحية: «سمعت أن أختك جاءت. هل كانت رحلتها مريحة؟».

أجابه دينج: «الحمد لله والشكر!».

«آمين! آمين!».

ومضى مبارك متلهفاً لتجنب الإشارة إلى حساب دينج أمام شاهد: «جئت تسلّم عليّ؟ خذ جوزة كولا من القنينة. كنت أتوقعك منذ أيام».

اختار دينج جوزة قوية، وكسرها، ثم مد يده أولاً إلى صاحب الدكان، ثم إلى الزبون. كانت رائحة النعناع تفعم الجو.

بدأ مبارك يتحدث بعد مغادرة الزبون: «أمل أنك جئت لتسوي حسابك. تعرف أنني لا ألحّ على الزبائن». حاول دينج أن يعرض قضيته، مقسماً باسم الله. الآن أخته عنده. وعرض الأقراط على مبارك أخيراً. تفحص صاحب الدكان، الأقراط، بازدراء، ثم أعادها إلى دينج.

ناداه صوت من الخارج: مبارك! مبارك! رد عليه مبارك: أنا قادم.

● أريد مقابلها، خمسة آلاف فرنك فقط. أنا متأكد إنني سأصرف الحوالة يوم الإثنين. سأمرّ عليك قبل أي شخص آخر إن شاء الله. ساعدني باسم الله ونبيه محمد!

ـ الله! الله! أتظن إني أربح خمسة آلاف فرنك في اليوم وبحركات مقصودة، تصفّح سجلاً ذا غلاف مزيت مكتوب عليه بالحروف العربية. هبطت سبابته إلى أسفل الصفحة «هاك... أتعرف بكم أنت مدينٌ لي؟».

وبصوت سريع رتيب عدّد المشتريات المختلفة، وقال أخيراً: «أنت مدين لي بعشرين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وخمسين فرنكاً. وهذا لسبعة شهور».

نادى الصوت ثانية: هيا! مبارك!

وردّ مبارك وهو ما يزال ينظر إلى دينج: أنا قادم.

كان الضوء الهابط من السقف يضفي على أعلى جبهته بريقاً، بينما تمتد البقعة السوداء تحت عينيه إلى فمه، الممطوط مثل خطم كلب.

«الله يعلم إنني لا أستطيع. اذهب وجد شخصاً آخر، وفكر بأن تدفع لي، إذ إنني سأغلق حسابك». توسل إليه دينج: «استمع...».

لكن مبارك انضم إلى الآخرين، مخلفاً دينج وحده في الدكان.

تحلّق أصحاب الدكاكين حول الموقد، بينما كان يرفع أحدهم وهو متربع إبريق الشاي عالياً، ويسكب الشاي في الكؤوس، لينزل بصوت مكتوم، معطراً الهواء.

وقف دينج يراقبهم وهم يحتسون الشراب الساخن بجشع. وكان ظله منتصباً إزاء بحيرة نور.

«مسحوق لقتل البراغيث
والخنافس والقمل والصراصير.
مسحوق يهديك ليلة هادئة
من يريد شيئاً منه؟ إنه ليس غالياً
حين أدخل بيتي لا أخرج
فلا تأت لتوقظني رجاء
رجاء... إن لي زوجة شابة. تعال!
الآن!
مسحوق... مسحوق ممتاز!».

كان هو البائع الجوال الذي توقّف لحظةً.

استفسر أحد أصحاب الدكاكين من دينج: ماذا تريد يا صديقي؟ كان جالساً على الرصيف، ممسكاً قدمه، وهو منحن، بيده، بحيث لا تلامس قدمه الأرض.

وضعهم مبارك، وهو يتحدث بلهجتهم، في الصورة.

«دعني أرى!»
مال دينج ناحيته.
«أهما ذهب؟».

«ذهب خالص. مختوم. أريد أن أرهنها مقابل خمسة آلاف فرنك. لقد دفعت ثمنها أحد عشر ألفاً وخمسمائة فرنك».

«سأذهب وأرى».

نهض، ودخل الدكان. وحين عاد تحدث مع مبارك، ثم مع دينج:

«ليس معنا نقود، كما تعرف، لكني أراك في حاجة ماسة إلى المال. سآخذهما لمدة ثلاثة أيام».

«موافق».

«انتظر، سآخذهما مقابل ألفي فرنك. وأنت ستعطيني خمسمائة فرنك زيادة».

اعترض دينج «ألفان»، ثم اقتعد الأرض بجانب الرجل «أنا محتاج إلى خمسة آلاف فرنك. ولكن أعطني ثلاثة آلاف. مبارك يعرف أن لدي حوالة من باريس». «كنت أحاول مساعدتك! خذ مجوهراتك. ليس لي فيها نفع كبير. إنها مال ثابت».

لم يعد أصحاب الدكاكين يهتمون به، فعادوا إلى حديثهم. الكؤوس تنتقل من يد إلى يد. حاول دينج عبثاً أن يستثير لديهم النخوة الدينية وحق الجار على الجار. لم ينفع أي شيء. أخيراً قبل بالألفين.

«اسمع جيداً، يا صديقي لو أنك في ثلاثة أيام ـ الإثنين، الثلاثاء، الأربعاء ـ لم تأت لفك رهان أقراطك، فسوف تخسرها، وأبيعها».

«نعم».

«فكر جيداً».

«أخبرتك أن عندي حوالة».

التفت الرجل الآخر نحو مبارك. تحدث الإثنان بلهجتهما، التي لم يستطع دينج فهمها. أخذ مبارك الأقراط، ودخل الدكان، ثم عاد، وعدّ

أربع أوراق من فئة الخمسمائة فرنك، ووضعها في يد دينج.

«كلما مررت عليك أخبرتني هيتي وآرام إنك في الخارج. رأيت أختك قبل قليل. لقد هزلت، المرأة المسكينة».

«أنا كثير الحركة هذه الأيام».

«أرى كل شيء على ما يرام».

لم يجب دينج. كان يحسب. خمسمائة فرنك لنوجوي العجوز، والباقي لأخته. ودّ لو رفض إعطاء نوجوي الخمسمائة فرنك، لكنه لم يستطع. وفكّر «قد تكون عندها كرامة... لتجبر يدي».

● قال جرجي ميسا: «هل تسلفني ألفي فرنك؟ سأردها لك في نهاية الأسبوع. أنا أتوقع أيضاً بعض المال».

ـ دمدم دينج وقد استفاق من صراعه الداخلي: «أوه؟ لا أستطيع».

● «حاول. أرجوك. حاول. سأكون سعيداً حتى بألف فرنك!».

ـ «ميسا. لا أستطيع. صدقني».

● إبراهيم... الناس يجب أن يساعد أحدهم الآخر. لا تتمتع وحدك بما لديك. فكر بالآخرين. اليوم لك، والغد لغيرك. الإنسان شفاء الإنسان.

ـ ميسا... النقود التي رأيتها، حصلت عليها من ارتهان أقراط زوجتي. إنها لأختي. أنا نفسي لا أعرف كيف أعطي زوجتيّ مصروف يومهن، غداً.

● لكنك وعدت نوجوي.

ـ آه...

● ذهبت لأراها، فأخبرتني أنها تنتظرك.

ـ لم أصرف الحوالة بعد، يشهد الله. والحوالة نفسها ليست لي.

● أعرف ذلك (وأمسك به من رسغه) أنت تعرفني منذ سنين. فكر بالأيام

السالفة. نحن لم نخف عن بعضنا شيئا. ما إن أتسلم المال الذي أتوقعه حتى أسدد حسابك حتى آخر فلس. بل سأزيده. ساعدني. أنت تعلم إنني لن أبدده إنه لعائلتي.

ـ ميسا... هذه النقود ليست لي. والحوالة التي بنيتم عليها آمالكم ليست لي.

● أعرف. لكنني سأسدد ما عليّ قبل عودة ابن أختك من أوربا.

ـ ليس لدي أي نقود (قالها دينج محتداً وهو يدخل بيت نوجوي). وفكر: «مضيعة للوقت أن تقول للناس الحقيقة في هذه الأيام.

●

باعتبارهما كنتين مضيافتين لم تشأ الزوجتان أن تتركا أم عبدو تغادر فارغة اليدين في اليوم التالي. فقد أخذت كل واحدة، من قاع صندوقها، ثوباً مختاراً وأهدته لها. رافقها أخوها إلى محطة الحافلة، واعداً بزيارتها خلال أسبوع على أبعد تقدير. كان لديها الكثير مما تقوله، ولم تتوقف عن تأنيبه على مشكلاتها:

«بدلاً من أن تحاول الارتفاع بنفسك إلى منزلة أكثر احتراماً في المجتمع، أراك لا تفعل سوى التمرغ في الوحل».

●

صباح الإثنين، وبعد مغادرته دار البلدية، وشهادة الميلاد في جيبه، ذهب دينج إلى أمبروز المصور. ومرتين رأى باب الكاراج مغلقاً. ولا أحد يخبره بسبب الإغلاق. أكان المصور مريضاً؟

وانزاح عن كاهله عبء عظيم حين رأى باب الكاراج مفتوحاً بعد الظهر. أخبره المساعد أن صاحب الإستوديو ليس هناك، ولا يعرف متى يعود. نعم هو يعرفه. كان نذير الشؤم! فآلة تصويرهما لم تعمل منذ يومين!

● أعد إليَّ نقودي.

ـ أوه... انتظر حتى يعود الرئيس. كل ما أعرفه أن الصور كانت فاشلة.

كان مساعد المصور جالساً على طرف الطاولة، وقدماه على الكرسي، وهو يحملق في النساء العاريات في مجلة «الحياة الباريسية» La Vie Parisienne. نفد صبر دينج مع طول الانتظار.

● ما دمت تعرف أن آلة تصويركم لا تشتغل، فالعمل الفاضل أن تعيد إلي نقودي. هل ساومتكم على السعر؟ لا! إن لم يعطني رئيسك الصور، فعليه! إعطائي نقودي.

ـ أوه... ليس هذا من شأني. اخرس وانتظر. إنك تخيف زبائننا وتبعدهم (كان المساعد يتكلم بدون أن يرفع عينيه).

● إن لدي أولاداً! أصغرهم أكبر منك.
(أشعل المساعد سجارة غير عابىء).

لقد أخبرتموني أن أجيء الجمعة الماضية. صحيح ما يقال عن الأولاد هذه الأيام. أنت لم تولد بعد، وإذا بك تدخن.

ـ أوه... إنها ليست نقودك.

نفخ المساعد الدخان، وهو يتكلم، باتجاه دينج. لم يستطع أن يتحمل الرائحة، ودخل الدخان في رئتيه. تضايق، وسعل، وأمسك بحلقه. سقطت قلنسوته عن رأسه. حاول غاضباً أن يمسك بالمراهق.

قال المساعد «احذر الآن! سأوذيك. انتبه!». ثم سحب الطاولة وقلبها «انظر ما فعلت، أيها العجوز الأحمق!».

● أنا... انتظر حتى امسك بك. سترى!.

وفي لمحة خاطفة كال المراهق ضربتين سريعتين أو ثلاثاً بقبضته على

أنف دينج. تدفق الدم على ثيابه، وجذبت الجلبة المارة فتجمعوا خارج الباب.

قال المساعد الذي أمسك به رجل من الحشد:

«هذا العجوز لم يجد الريّس، فأراد أن يحطم المكان».

أما الرجل الذي وقف حاجزاً بين الخصمين فقد قال: «ليس لك حق في تحطيم أدوات شغله. ريّسه خارج المحل، وعليك أن تنتظره».

كان دينج، وهو يمسح أسفل وجهه المغطى بالدم، يجد صعوبة في سرد روايته.

قال الرجل بقسوة: «أنت على خطأ. أنت لا تتشاجر في مشغل شخص آخر. ولكن ما العمل مع هؤلاء المرابطين؟ إنهم زمرة غشاشين».

«ماذا يجري؟» استفسرت امرأة شابة ذات لهجة ندار واضحة، وهي تشق سبيلها في دائرة المشاهدين المستطلعين. كان شال رأسها يجعلها تبدو كإحدى الأمازونات.

التفت إليها (كيبي) المتباهي وقال:

«لا شيء، يا بوجوما، إنه هذا المرابط المزيف أخذ علقة من مالك».

هتفت بوجوما، المرأة الشابة، وهي تمسك ذقنها بيدها مندهشة:

«إنه يسبح في دمه. كبش نطاح حقيقي. إذن هذه هي الموضة الآن في دكان امبروزه».

وقالت امرأة أخرى أكبر سناً، وهي تنظر نظرة عطف: «تعال يا رجل. أنا أسكن في الجوار. سأعطيك ماءً». وبينما هو يتبعها، شرح لها كل تفاصيل مغامرته العاثرة. نظف دينج نفسه، وهو يجلس الآن على مصطبة الشغل أمام بيت المرأة. كان يراقب استوديو المصور. بعد ساعة رأى رجلاً

ضئيلاً يقترب مرحاً، وهو يحيي كل من يلقاه. وها هو الآن في أرضه.

قال بالفرنسية حين رأى دينج: «إذن أنت هنا يا يونس العجوز؟».

لكنه حين شاهد الاستوديو، تجمد التعبير السعيد في قناع قاس. انفجر مثل بركان، مندفعاً في إحدى نوبات غضبه التي لم يألفها حتى مالك، مساعده وفصفت عاصفة من الشتائم ذهن دينج التقي. قال مالك: «يا ريّس. هو السبب. أقسم أنه كان السبب». رأى دينج، من قبل، أناساً غاضبين، لكن المصور ينتسب إلى صنف غير طبيعي. كان عنقه ووجهه منتفخين. وتحولت بشرته السوداء القاتمة إلى رمادية شاحبة، وجحظت عيناه وتكورتا واحمرّتا، وتدلت شفته السفلى والتوت، كاشفة عن أسنان ناصلة بسبب النبيذ الرخيص الذي يباع في كل مشارب المدينة. أضاف مالك وهو يصب الزيت على النار:

«يا ريّس. قلت له أن ينتظر، لكنه لم يسمعني. انظر إلى ما فعله».

انهال أمبروز بالشتائم على دينج وأمثاله في البلد، وأثار صوته الغاضب العدواني انتباه المارّة:

واخرج! اخرج، قبل أن يحدث أمرٌ رهيب.

أتظن فرنكاتك المائتين البائسة ستعوض عن كل هذا الضرر؟ أيها الأبله! أيها الأحمق الغبي!».

كانت الشتائم تنهال على دينج بكل اللغات. فاستهلاكه الضخم للروايات البوليسية، وارتياده الكثير لدور السينما حيث تعرض أرخص الأفلام الفرنسية والأميركية والانجليزية والهندية والعربية، كل هذا قد أنضج قاموسه المتداول.

انسحق دينج وذهل. كان يريد أولاً أن يردّ، لكن هجوم المصور المفاجيء ردعه. لم يقل شيئاً، بل أنصت مثل المتفرجين المتعجبين، إلى

السيل المنطلق.

نصحه أحد الواقفين: «اذهب يا رجل».

«إنه مدينٌ لي بنقوده... ردّ دينج، وهو يبحث بعينيه، عن مساندة من رجل ناضج السن يرتدي قفطاناً بلون صفار البيض، ويعتمر عرّاقية بلون الشوكولاتا. ومضى دينج يقول وهو ما يزال ينظر إلى الرجل:

«قبل أيام، طلبت صوراً فوتوغرافية. والآن يرفض هو ومساعده أن يعطياني الصور. فليرجعوا نقودي». تدخل أحد المتفرجين قائلاً: «إن أمبروز محتال. وبرغم كل الفضائح التي يسببها فإن الشرطة لا تتدخل». وثب أمبروز إلى الأمام ناخراً كالخنزير.

«من قال هذا؟ أي ابن قحبة قال هذا؟ ليظهر نفسه. الضرر الذي أحدثه هذا الأحمق العجوز سيكلفني ثلاثين ألف فرنك. انظروا إلى الخبيصة. سأشكو الأمر إلى الشرطة».

رمق دينج المصور بنظرة واهنة، ثم نظر إلى الرجل ذي العرّاقية.

«لا قانون في هذا البلد. أنت مدينٌ لي، وأنت ذو الكلمة». كان دينج يحتج في لحظة تأمُّل.

قالالرجل ذو العراقية بصوت هادىء وقد التقت عيناه بعيني دينج: «أرجوك أن تذهب، بسرعة. أنصحك أن تذهب».

أحس دينج بوخز في موضع ما من جسمه. كان دمه يفور، وقلبه ينكسر... محذراً من خطر. أتراه تكلم أكثر من اللازم؟

غمغم أحد الواقفين «مخبر» ثم ذاب الحشد فجأة من الخوف «إنه مدين لي بمال»... حاول دينج أن يقولها ثانية، رافعاً حاجبه إلى الرجل ذي العرّاقية. سأله هذا، بحزم: «إلى أين أنت ذاهب؟».

أحس دينج بالارتباك. إن ثقلاً غامضاً ناعساً سمّره إلى الموضع. وفي

لحظة فارقه هذا الإحساس، وعادت إليه قوته. كان لسانه أشلّ. لكن خوفه من المهانة الماثلة قوّى من حرصه على كرامته، وساعده في أن يقرر المغادرة، لينجو، قبل أن يحيط به الجمهور ثانية. تكلم بصوت طفولي وقال للرجل ذي العرّاقية: «من هنا...».

أمره الرجل بالذهاب بإيماءة من رأسه. بعد مائة ياردة نظر دينج خلفه. كان الرجل واقفاً كالتمثال يراقبه.

علينا أن نحاول ونفهم إبراهيم دينج. لقد كيفته ظروف سنين من الاستسلام الأعمى غير الواعي، وهو يفر من كل ما قد يسبب له عناء، سواء كان ملموساً أو معنوياً. والضربة التي تلقاها على أنفه كانت بإرادة الله. والمال الذي خسره كان مقدراً عليه أن لا ينفقه. وإن كان للغش اليد العليا فلأن الزمن هكذا، وليس لأن الله أراد هكذا. هذه أوقات ترفض التلاؤم مع التقاليد القديمة.

وبغية التخلص من الشعور بالذل، دعا إبراهيم دينج الله القادر القدير، فالله ملاذٌ أيضاً. وفي أعماق يأسه، والمهانة التي تعرض لها، كان إيمانه يقوّيه، مطلقاً جدولاً خفيّاً للأمل، لكن هذا الجدول كشف أيضاً عن نواحي شك. إنه لا يشك في أن الغد سيكون أفضل بالتأكيد من اليوم. لكن إبراهيم دينج، للأسف، لم يعرف من سيكون باني الغد الأفضل، هذا الغد الأفضل الذي لم يشكّ فيه.

●

لم يرد دينج أن يرى جيرانه حالته: ثيابه الملطخة بالدم، ونعليه أيضاً. كان لديه إحساس بالرفعة تمتع به منذ وصول الحوالة. لمدة أسبوع كان وحده، ووحده يجب أن يواجه خصمه. بعد أن ترك الشارع الرئيس، ظل يمشي مسرعاً لصق الأسيجة، من ركن إلى ركن، خافض الرأس، حتى بلغ منزله دون أن يراه أحد.

دخل البيت.

هبت آرام للقائه، وعيناها تبرقان من الخوف. نظرت إلى وجه الزوج، وإلى نعليه. لاذ دينج بالصمت إزاء أسئلتها المنهمرة. ونشر القلق سجادته المعتمة على قلب المرأة.

في الحجرة، تمدد دينج. مع كل نبضة من قلبه كانت أناته تزداد علواً. أخذ الدم ينزف من أنفه ثانية. وضعت آرام ذراعيها على رأسها، وأطلقت صرخة مديدة شاكية.

قال دينج وهو يمسح وجهه بقماشة: «لا تفعلي. لا شيء..

ـ ماذا حدث لك؟

● لا شيء. أوقفي البكاء. ستأتين بالجيران جميعاً». صرخت لمرأى الدم، واندفعت خارجة، وبداها فوق رأسها: «لا إله إلا الله! إنه ميت». في الباحة، اشتدت صرخاتها، وجاء الجيران راكضين، يمطرونها بالأسئلة.

أعولت: «إنه في الداخل يموت. ودمه يسيل مثل ماء الحنفية».

نوجوي العجوز، التي ما تزال نشطة، بالرغم من هزالها، دخلت الحجرة، تتبعها ميتي. وجوه ناقمة انتظرت. منذ عدة أيام كانت عائلة دينج مراقبة. كل واحد يتمنى الشر لهم في أعماقه، وإن لم يعترف بذلك لنفسه. وَوَلْوَلَت آرام ثانية: «سوف يموت».

أعلنت ميتي بسرعة: «حاولوا قتله! ما إن تسلّم الحوالة حتى هاجمه ثلاثة رجال» وتأكدت من مفاجأة ما أعلنته، فاستمرت بصوت باك وعينين دامعتين: «لو كان المال له، يشهد الله، فلن نتألم كثيراً، لكنه مال ابن أخته الذي يشتغل في باريس. جاءت أخته لتأخذ حصتها، وبفضل أقراط آرام المرهونة لدى مبارك، استطاعت العودة إلى بيتها. الآن خسرنا كل شيء. كل شيء حتى منزلتنا في الحي التي كسبناها بسبب الحوالة».

وللحظة، استجاب الجميع إلى الشعور بالتضامن الذي يشد المحتاجين.

قالت امرأة: «لا تبكي يا آرام، وأنت أيضاً يا ميتي». «كل واحد يظن أننا أنانيون، نحاول نسيان واجبنا إزاء جيراننا».

«ميتي، لا تكومي علينا العار! إنك تؤذيننا. صحيح، نحن سمعنا عن الحوالة. ماذا تتوقعين؟ حينما تكونون جميعاً عائلة واحدة، وكلكم جائع، فلسوف تصدقون حتماً ما تسمعون. تعرفين أن الناس يوجهون اللوم قبل أن يأتيهم الفهم».

وأضافت امرأة أخرى: «ذلك لأننا جياع». كانت ذات عينين جاحظتين مثل لؤلؤتين، وثوب عتيق ناصل.

انطلقت الألسنة، وبرزت معظم الأفكار الخبيثة إلى ضوء النهار: المكيدة. المحاباة. العطالة. الفساد الخلقي. لا مبالاة السلطات. تعالت الأصوات، وامتدت الأذرع بإشارات وحشية في الهواء الفارغ. وتناولت المناقشة المبلغ المالي. «مائة ألف فرنك تسرق في يوم واحد!».

«سمعت أنه أعطي مرتب سنة كاملة. لم يكن يشتغل أكثر من سنة».

«ابن أخته قادمٌ من باريس بالطائرة».

«تتمنى، وندعو الله أن يكون ابن أخته مسلماً صالحاً فيغفر له».

ثم عاد المونولوج الجمعي إلى حالة البلاد: الفساد. الرشوة. جواسيس الشرطة.

نوجوي العجوز ظهرت ثانية.

«الحمد لله! إنه نائم. فقد دماً كثيراً وهو في هذا العمر! أي بلادٍ هذه؟ أنا لم أعد أعرف عمري، ولم أغادر نداكارو، لكني اعترف بأني لا أعرف هذه البلاد».

بعد أكثر من ساعة، حين هبط المساء، انسحبت النسوة. هدأ البيت. واتقدت نار صغيرة حزينة في المطبخ. خلال اليومين اللذين أمضاهما دينج في الحجرة، كان لديه وقت مديد ليتأمل ويفكر في الحوالة، ويحلل الحياة الحديثة. وكلما دفع بتحقيقاته الذهنية أكثر زادت الأمور تشوشاً، وضيّع نفسه في رأسه، كما يقول الناس هنا. إنها دائرة شريرة. أحس بالاختناق. وبدا الناس كأنهم يصبحون أكثر شراً بدون احترام لما يملكه الآخرون.

والمثل يقول: المقدام يغلب الطائش.

الرجال الذين في مثل سنه جاؤوا بعد الصلاة ليتجاذبوا أطراف الحديث. وبدا أنهم يصدقون جميعاً حكاية ميتي. بعد أن ذهبوا، فكر ملياً في ادعاءات زوجته الأولى. ماذا سيفعل؟ عليه أن يبدأ العملية من جديد، ويحصل في الأقل على ثلثمائة فرنك للصور والطابع. إنه لا يستطيع أن يترك الحوالة تعود إلى مرسلها، بعد أن أنفق ما أنفق. ما تزال أمامه أربعة أيام على الأجل المحتوم.

كان الوقت ضحى. وقد فكر في خطة محكمة. الأطفال يلعبون، كالمعتاد، في الطريق. عنّف ميتي بشدة، لكنها قالت: «أنت الآن مرتاح. تستطيع أن تروح وتغدو بدون أن تقول (يشهد الله. أنا لم أتسلم الحوالة). لقد أضعت وقتك وأنت تقسم باسم الله واسم نبيه محمد، ولم يصدقك أحد. وفي كل مكان يتحدثون عن تسلمك مرتباً عن سنة كاملة مضت. آخرون يقولون إن ابن أختك أرسل إليك مائتي ألف فرنك لتبني لك بيتاً. ولا أحد يكلمنا، نحن زوجتيك. وعند الحنفية العامة، يأتين جميعاً: «اقرضونا كيلو رز»، «اقرضونا مائة فرنك»، وهكذا. لم تعد نحتمل أن نقول الشيء نفسه دوماً. نخبرهم بالحقيقة؟ لن يصدقوها. الأمر بسيط: الحقيقة لم تعد تنفع أحداً!».

«عليك دائماً أن تقولي الحق. ومهما كان صعباً عليك يجب أن تقولي

الحق. ماذا سأقول الآن؟ أنت تعلمين جيداً أن الحوالة ما تزال في مركز البريد».

«هكذا بإمكانك أن تتسلمها دون أن تجد الناس يتجسسون عليك. الناس يجيئوننا عادة ليروا ما نطبخ في قدورنا، حتى يكون بمقدورهم القول، فيما بعد: لقد حصلوا على المال. لا. ليس هذا كذباً. إنه إبعادٌ للظنون السيئة التي يظنونها بنا. تذكر أن آرام أعارتك أقراطها من أجل أختك. وإن يوم افتكاك الرهان قد مضى».

«أعرف ذلك. لا حاجة إلى أن تذكّريني. ولا حاجة أيضاً إلى الإيحاء بأنني أفضل أختي على زوجتي». وبدأت آرام: «سامحني يا إبراهيم. سوف ننسى الأقراط. فبمشيئة الله، وحين تتحسن أمورك، تستطيع أن تشتري لي أكثر. فالممتلكات لا تنقذنا من الموت، ولكن من العار، إذ أن ممتلكاتك ممتلكاتنا. يظن الجيران أننا أنانيون. كل جوعهم موجه إلينا». «العيش غير محتمل مع جيران هم أعداؤك. وأنت تعرف جيداً أننا لسنا الوحيدين الذين يزيفون الحق. نحن نخفي أحدنا عن الآخر. لماذا؟ ليس لدى أحد ما يكفي لعيش أسرته عيشاً لائقاً. هذا السلوك الجديد هو نتيجة خبثنا. لم تعد الحياة مثلما كانت أيام شبابنا، أيام شبيبة أولئك الذين هم آباء اليوم. كم من الناس يخفون كيس رزهم ليلاً؟ ولماذا؟ حتى لا يشاركهم فيه أحد».

«ماذا سأقول حين يعرفون أن الحوالة ما تزال في مركز البريد؟».

رفعت ميتي جبينها. منديل رأسها المعقود إلى جهة واحدة زاد من الرعشة التي اعترت الجزء الأسفل من وجهها. كان في عينها بريق الاتهام القائل: أهو أحمق حقاً، أم يحسبنا حمقاوين؟

«حين يأتي اليوم، قل إن ميتي هي التي كذبت». وقالت آرام: «وأنا أيضاً».

تراجع دينج أمام إصرارهما، وفكر: «عليّ أن أكذب حتى النهاية».

سار، كمن يمر في نقاهة، إذ كان ما يزال واهناً، غائر الخدين.

خارج المدخل، تفحص جانبي الطريق، ثم مضى إلى الركن حيث دكان مبارك.

أعلن جرجي ميسا على سبيل التحية: «إبراهيم دينج... وصحتك؟».

«الحمد لله».

عقد ميسا حاجبيه، وراقب دينج بريبة. كان يرتدي قباءً أزرق نيلياً، جمعه دينج في حركة مألوفة، بيديه، وراءه.

«كنت مريضاً جداً قبل يومين. أين حدث ذلك؟ أمرٌ لا يكاد يصدَّق».

«أنا نفسي أجد صعوبة في تصديقه. ومع هذا... حسناً، إن الصدق جريمة، هذه الأيام، في هذه البلاد».

«آه!» هتف جرجي ميسا، فاغر الفم، كاشفاً عن بقايا أسنان فقدت لونها بسبب عصير الكولا. كان ضوء الشمس الساطع يحيط حدقتيه بذرّات خفيفة من الفضة، وشبكة من الطّيات تنتشر على جلده الخشن في شكل مروحة. قال مرتاباً:

«إن كان الحقل بلا قيمة، فلا يهم إن بذرت. فيه كل أنواع البذور».

«الامتلاك الكامل لشيء، يمنح المالك قوة. والمالكون ملكاً كاملاً نادرون».

«المعرفة القليلة بمواضيع متنوعة، مهما كانت قليلة، فإنها تجعل أي أحمق حكيماً بين حمقى. قلت وأقول ثانيةً إن الصدق جريمة، هذه الأيام، في هذه البلاد».

قال دينج هذا، ودخل دكان مبارك، تخلصاً من ميسا. كان مبارك

مشغولاً مع امرأتين. رد على تحية القادم بنبرة اهتمام.

«بالرغم من ذلك الذين اللعين، كنت سأزورك. ربما أبلغتك آرام بتحياتي؟».

«أوه، نعم، هذا الصباح».

«أمر لا يصدق! ماذا سيحلّ بنا لو سارت الأمور هكذا؟ أن تسرق محفظة المرء في وضح النهار! هل ذهبت إلى الشرطة؟ واجبهم القبض على اللصوص.

إحدى النساء، دابا (السوداء) كما تلقب في الحي، التفتت بوجهها الخشن الضخم إلى دينج وهي تحصي علب حليبها.

قال دينج: «أنت على صواب. كنت أفكر بالأمر هذا الصباح».

قال مبارك: «كان عليك أن تقوم بالأمر رأساً. سوف يبدأ الناس يرتابون». ثم وجه حديثه إلى دابا: «يبدو أنك تظنين هذه الأوراق بلا قيمة». «إن لم تأخذها فسأحتفظ بها. لست شحاذة». «دابا. أنت سنان الرمح. إن لمست أحداً، أو لمسك أحد، فالأمر سواء... إنك تسيلين الدم». «لماذا تترفع على هذه الأوراق؟ ألا يكفيك أنك تغش الناس؟ أتريدنا أن نركع لك أيضاً؟». قال مبارك مغيراً الموضوع: «ما الذي سنفعله يا إبراهيم؟ أنت تعلم يا صديقي أن هذه البضائع ليست من بلادنا. وأنا عليّ التزامات. والناس الدائنون ليسوا مثلي. إنهم لا يعرفون إلا المواعيد المحددة. أبذل جهدك، بينما أفكر أنا بالأمر، لقد تأخر الوقت على استعادة الحلي التي رهنتها».

قال دينج «كلمتي واحدة». كان مائلاً على النضد، وهو يفكر بما سيقوله لآرام عن الأقراط.

«أريد أن أبلغك رسالة». اقترب مبارك ومال على دينج، وفمه على

أذنه. اعتم وجه دينج ببطء، وقست ملامحه.

هتف فجأة: «أبداً! أبداً! أبيع بيتي؟ لماذا؟ لأدفع لك؟ أهذا ما تريده؟ قل لمن بعث الرسالة أن إبراهيم دينج لن يبيع بيته. أبداً! فقير، هذا أمرٌ يمكن احتماله، لكن... فقيرٌ بلا بيت، هذا هو الموت».

«لا ترفع صوتك».

«أمامك الخد لـ...»

«والمال الذي أنت مدين به لي؟ لا يمكنني أن أقلل اهتمامي ببيتك. أنت مدين لي. ادفع دينك.

هذا كل ما في الأمر! أنا أيضاً أستطيع أن أرفع صوتي. كل ثيابك الجميلة ليست سوى ريح. أمس حين توسلت من أجل حفنة رز، لم يكن صوتك عالياً». «أنت أعطيتني بالدين لأني أدفع. الكل يعرف أنك تبيع بأسعار أكبر مما يلزم».

اجتمع حشد من الناس، بحيث احتل الدكان.

«لتمت جوعاً، أنت وكل عائلتك. لا بيع بالدين. وأقسم بأجدادي لتدفعنّ لي. سأذهب إلى الشرطة». صرخ دينج ممسكاً برسغه «تعال إذن! تعال..!».

«اتركني! أقول لك اتركني».

«تعال!».

«لتدفعنّ لي. قسماً. لكني لن أبيع بالدين لأحد ثانية». تدخّل إيبو قائلاً: «يا مبارك، وجّه ملاحظاتك إلى إبراهيم دينج، وأنت يا دينج، تذكر أن على المدين أن يكون ليناً».

«إيبو... كفاني ليناً. أنا لست حصيراً يوطأ. تكلم عن نفسك. أتبيع بيتك؟ أجبني!».

«إنها رسالة. هذا كل ما في الأمر. أنت مدين لي، وصوتك أعلى مني تقول إنك هوجمت! أنت تخدع الناس. تريد أن تنتفع من الحوالة وحدك. لكنك ستدفع لي».

هنا، شعر دينج بأن الخصومة تضعف وتنحسر. عدّل من قامته، واثقاً من نفسه. والتقت عيناه بعيون الآخرين التي تلتمع بريبة الاتهام.

وأعلن جرجي ميسا الذي اقترب، وعيناه على حاجب دينج المعقود: «أنا كنت معه، يا مبارك. لا تنفث السم في قلوب الناس».

«ما زلت أشك. وستدفع لي قبل مغادرتك الدكان».

«لا تقل ذلك، يا مبارك!».

«اتركه. الكل يعرف عن معاملاته مع أشخاص مشبوهين».

«هذا شغلي. لا دَين بعد اليوم، لأحد».

احتجت إحدى النساء: «أزواجنا يدفعون. زوجي دفع لك أمس».

«هذا صحيح. إن كنت مديناً فيجب عليك الدفع. وعلى المدين أن يعتني باللغة التي يتكلمها مع الدائن».

تدخلت ميتي التي نادتها فتاة صغيرة من الحنفية العامة: «أنت، يا دابا، كنت دائماً ودوداً مع هذا اللص، مبارك».

«لم أكن أتكلم معك، يا ميتي».

«وأنا، يا دابا، أتكلم معك». كان عراك ميتي أسطورياً، بالرغم من سنها. بعد دابا، استدارت نحو صاحب الدكان.

«في رأسي، كل ما نحن مدينون به إليك. سندفع لك. لكننا لن نقطع أنفسنا أشلاء لنبيع لحمنا».

«أنا لا أتكلم معك يا ميتي. هذا من شؤون الرجال. أنا أتكلم مع

زوجك. هو مدين لي، واسمه في سجلي، هناك...».

«تماماً. لأنه زوجي، ولأني أنا التي تبتاع الأشياء. أنت عملت حسابك، وكذلك أنا. أما إذا كان هذا كله بسبب الحوالة، فعليك أن تبتلع ريقك. لقد سلبوه».

كانت تشير بحرارة، وتهز سبابتها في وجه مبارك. تزايد عدد الناس المتجمهرين.

«النقود! إنه لجنونٌ، كيف يتقاتل الناس على النقود منذ الاستقلال»... هكذا تكلم رجل يحتذي نعلين، وهو يشق طريقه بكتفيه خلال الجمهور، كي يتفرج بصورة أفضل. ووافقته امرأة قربه، «هذا صحيح. يبدو أن المال حلّ محلّ الأخلاق في بلادنا»... قال شخص في المؤخرة. «ومع هذا، فكل ما نريده هو كفايتنا لنعيش، وتعيش عوائلنا».

فجأة، هزت ضحكة مجلجلة، الحشد: «خراء!» هكذا هتفت ميتي للمرة الثالثة.

أقبل بايدي العجوز، وهو جلد وعظم، طويل نحيل، واستعرضت نظرته الحشد. قبل أيام قليلة، حين عاد إلى بيته فارغ اليدين بعد زيارته دينج، أخبر زوجاته: «خيرٌ لي أن أموت جوعاً من أن أمد يدي إلى عائلة دينج». أعلن بغطرسة: «الحق يقال. حين تكون مديناً، عليك أن تدفع».

«من يملك حيراً يجب أن يميل إلى جانب من يملك التبن. لا فضل في دفعك دينك حين تكون غنياً». صاحت ميتي، التي رفضت أن تسكت، بالرغم من توسلات زوجها والآخرين.

اعترض بايدي: «حين يتنازل الرجل عن سلطته، يغدو فزّاعة».

فأعلنت ميتي بقوة: «يكون الرجل فزاعة حين لا يملك إلا الكلمات. هناك رجال ورجال».

انسحب الرجل العجوز.

أيدت النساء، ميني، وشكلن مجموعة حولها. وشتمن صاحب الدكان بكل الشتائم التي وقعت عليها ألسنتهن.

●

توقفت سيارة مبابي، وهي بيجو ٤٠٣ سوداء عند الباب الآخر. وبخطوات لينة ساكرة دخل الدكان. ملابسه الأوربية وشهرته في الحي منحتاه سلطة معينة. تحدث بوقار إلى الناس المجتمعين، وخلال خمس عشرة دقيقة أعاد الهدوء، وتفرق الناس. وبينما كان يسير مبتعداً مع دينج قال:

«انتظرتك يا عم دينج، هذا الصباح».

«أردت المجيء لأراك، لكني وقعت في هذه...» قال مبابي مقاطعاً: «انتهت الآن! تعال لتراني في الساعة الثانية».

ركب سيارته، وهدر المحرك. جاء جرجي ميسا وجلس جنب دينج: «إنه شخص هام، مبابي».

«شكراً لما فعلته للتو في الدكان».

«لا شيء. يجب أن نسند بعضنا مهما حدث. اللسان يؤلم أكثر من الرصاصة».

استدارت الـ ٤٠٣ في أول تقاطع.

ينتسب مبابي إلى جيل «أفريقيا الجديدة»، كما يسمى في بعض الأوساط. إنهم رجال يجمعون بين المنطق الديكارتي والتأثير الإسلامي والطاقة الضامرة للزنجي. كان رجل أعمال، مستعدا دائما للقيام بصفقة، طالباً نسبة مئوية عن كل سمسرة تبعاً لقيمتها. ويقال عنه إنه قادرٌ على حل كل مشكلة. وهو يملك دارة في الناحية القصوى من القاطع الجنوبي. كما أن

له زوجتين، إحداهما مسيحية، والأخرى مسلمة، وسيارة ٤٠٣. لقد بلغ القمة.

●

تقع دارة مبايي وسط مدينة الأكواخ المتداعية. حجرة الجلوس مزدحمة بالكراسي والمزهريات ذات الورد الاصطناعي. والغالب عليها هو اللون الأزرق. تيريزا، الزوجة المسيحية، التي كانت على وشك المغادرة، للعمل، استقبلت دينج وأجلسته في الحجرة. كانت ترتدي ثوباً ذا أزهار، وشعراً مستعاراً من طراز بريجيت باردو.

قالت له بالفرنسية، بصوتها الرفيع: مبايي في قيلولته. وحين رأت دينج يتصبب عرقاً، أدارت المروحة الكهربائية. نظر دينج بحسد، حوله، إلى الأثاث. وفكر: «هذا رجل ناجح. وسيكون عبدو مثله عندما يعود من باريس».

مر أكثر من عشر دقائق قبل أن يدخل مبايي الحجرة وهو يعقد ربطة عنقه.

قال مبايي لتيريزا التي كانت تنظر إلى الباب نافدة الصبر: «ماذا؟ كان يجب أن توقظيني لتقولي أن هناك زائراً». أجابت بالفرنسية: «لم تخبرني يا صديقي».

أعتذر مبايي، كما ينبغي أن يعتذر الصغير للكبير. «لا شيء. جئت مبكراً قليلاً. أنا أفهم. كنت أنت متعباً». تحدث مبايي طويلاً، وبدون مبالغة، عن المساوىء الرهيبة للحياة الحديثة. إنه لا يجد وقتاً هذه الأيام حتى للقيلولة. ويجب عليه، حسب رأي طبيبه، أن يذهب إلى فرنسا في علاج راحة.

جاءت خادمة بصينية قهوة.

«احضري فنجاناً آخر للعم».

«لا. وشكراً. أنا لا أشرب القهوة».

انطلق بوق سيارة ثلاث مرات. نهضت تيريزا حالاً، قائلة: «لا تنس إغلاق المروحة. أراك في المساء». «تذكري أن تتلفني لذلك الرجل. قولي له إني سأذهب إلى روفيسك عصراً».

«O. K».

هتف دينج: «عجيب!».

قال مبايي وهو يحتسي قهوته: «بلادنا تتقدم، وللنساء نفس حقوق الرجال».

أخبره دينج عن متاعبه الأخيرة، حتى عن حكاية ميتي الزائفة.

«النساء عبقريات أحياناً. أظنها فكرة جيدة. سنذهب إلى مركز الشرطة. أولاً يجب أن تعطيني تفويضاً، إذ لم يبق لدينا وقت لبطاقة الهوية. لن تكون مشكلة في مركز الشرطة. ستتسلم حوالتك بعد غد على أكثر تقدير».

«إن شاء الله. أنا بين يديك».

قال مبايي وقد تواضع فجأة: «أوه... هناك فرصة جيدة في أن الحوالة لم ترجع بعد إلى ابن أختك». شرب قهوته، وأغلق المروحة. ظهرت زوجته الأولى. كانت ترتدي ثوباً إفريقياً. انتهت التقديمات، وانتحت بزوجها جانباً.

حين خرجا من البيت، كانت البهجة تغمر دينج. إنه لا يعرف كم يريد مبايي. وهو نفسه لا يعرف كم سيعطيه ألف فرنك؟ قليلة جداً لرجل مثل مبايي. خمسة آلاف فرنك؟ مبلغ كبير. الفان، ثلاثة، أربعة آلاف؟ سوف يرى.

أخذا استمارة التفويض من مركز البريد، ثم ذهبا بسيارة مبايي إلى مركز الشرطة. وطوال الطريق لم يكف عن نصح دينج بصدد ابن أخته عبدو. كان دينج يومىء برأسه موافقاً. ومثلما أخبره مبايي سار كل شيء على ما يرام في مركز الشرطة، وتمت معاملة استمارة التفويض، وسرعان ما جرى التصديق عليها.

«أيها العم. تمّت الاستمارة. أنا متأخر قليلاً على موعد لي في روفيسك. سأعود هذا المساء. وصباح غد أذهب بنفسي إلى مركز البريد».

قال دينج: «إن شاء الله!».

وردد مبايي: «إن شاء الله. تعال إلى بيتي ظهر غد».

«إن شاء الله! سأكون هناك. لست أدري ماذا كان سيحل بي لولاك».

«لا شيء، يا عم. يجب أن يساعد أحدنا الآخر. هاك. خذ سيارة أجرة. ليس لدي وقت لأوصلك إلى البيت». حاول دينج أن يرفض ورقة الخمسمائة فرنك التي قدمها له مبايي: «لا! لا! أستطيع العودة ماشياً».

«خذها على أي حال».

أخذها دينج. قرر الذهاب إلى كاتب الرسائل، ما دامت الخمسمائة فرنك في جيبه، كما أنه سيتسلم الحوالة غداً. أنزلته الحافلة خارج مركز البريد. كان نصف خال. وكاتب الرسائل العجوز لديه زبون واحد أمامه: لم يتعرف على دينج. لكن دينج ذكره بالخمسين فرنكاً، ودفع دينه. عدّل كاتب الرسائل نظارتيه وتناول قلم الحبر الجاف:

داكار

١٩ أغسطس ـ ١٩٦

«ابن أختي العزيز:

أكتب إليك سائلاً عن أخبارك، ومقدماً لك أخبار العائلة، وهي ممتازة

والحمد لله! نحن كلنا هنا نفكر بك وندعو الله من أجلك.

أخيراً، تسلمت الحوالة. لم تكن عندي بطاقة هوية، حين وصلت. كل شيء يسير سيراً حسناً بفضل الله. أمك جاءت، وهي بخير. وقد عادت الآن. إنها لم تبق لدينا إلا ليلة واحدة بسبب العمل في الحقول. أعطيتها ثلاثة آلاف فرنك. وهي تشكرك وتسلم عليك وتدعو لك. إنها تطلب منك أن ترسل لها مالاً لتشتري ملابس وتدفع الضريبة. في هذه السنة ارتفعت الأسعار كلها. وفي السنة الماضية كان موسم الغلة سيئاً لهم. أنت سندها الوحيد في العالم.

أما من جانبي فأنا أدعو لك دائماً. وحالما تسلمت الرسالة فعلت مثلما أخبرتني. وإن شاء الله سوف تجد المبلغ كله هنا، حتى لو اختارني الله إلى جواره. أشكرك لتفكيرك بي وثقتك. هذه الأيام تصعب الثقة بالناس. أتوسل إليك ألا تعتبر المال جوهر الحياة، وإلا قادك إلى طريق التهلكة، عاجلاً أو آجلاً، فتكون وحيداً حسيراً. المال لا يعطي الأمان. وعلى العكس من ذلك فإنه يحطم كل ما هو إنساني فينا. لا أستطيع أن أخبرك بكل ما يدور في رأسي...».

●

توقف كاتب الرسائل. رفع حاجبيه فوق الإطار المعدني لنظارتيه. يبدو أن زبونه يملي رسالته وفي حلقه غصة. تحدرت الدموع من عينيه. رفع دينج رأسه. حقاً، كان الرجل الشيخ يبكي. «سامحني، يا رجل. إنه ابن أختي. هو في باريس وقد تصرف مثل...».

«أنا هنا أرى وأسمع كل أنواع الدراما».

«كنت أقول في هذا الصباح فقط إن الصدق جريمة في هذه البلاد...».

قال كاتب الرسائل وقد لمح زبوناً آخر قادماً: «إنني أنصت. لقد

وصلت إلي: لا أستطيع أن أخبرك بكل ما يدور في رأسي...

●

«أشكرك ثانية. لن أنسى ثقتك. عمتاك، ميتي، وآرام، والعائلة كلها تسلم عليك. حقيقة أنت لست في داكار، لكن عليك أن تحمي نفسك فباستطاعة البعض أن يرميك بعين الحسود لدينا هنا مرابط صادق. سوف أذهب إليه من أجلك. أنا سعيد جداً لأنك تؤدي صلواتك الخمس يومياً. عليك أن تستمر لا تنس أنك أجنبي في باريس. هنا، كل الأولاد الذين في مثل سنك لديهم منازل. ليس عندي ما أضيفه. إنك رجل».

خالك

إبراهيم دينج

استفسر كاتب الرسائل بعد أن قرأ الرسالة وأغلقها: «العنوان؟».

تحسس دينج جيوبه.

«لقد نسيتها في البيت».

«لا يهم. ستجد من يكتب لك العنوان».

في الشارع، أحس دينج بأن قلبه ينبض فرحاً، وتكرم على مجذوم عجوز فأعطاه عشرة فرنكات. وفي بيته، عفا برحابة صدر عن كلمات ميتي القاسية التي قالتها بحق الرجل العجوز بايدي. «أنا أفهم لماذا فعلت ذلك. كان شرفنا موضع هجوم، وعلتنا».

بعد ذلك، ذهب ليلقى الأشراف في المسجد. وهناك أمام الشهود اعتذر لبايدي الذي قال أنه لم يحس بأي خبث. وكرر دينج مغتبطاً: «ما زلت أريد أن أعرف أنك سامحتني، وعائلتي أيضاً».

«أقول لك إني سامحتك».

«الحمد لله. ليغفر الله لنا. أنا أيضا أسامحك». وقال الآخرون «آمين! امين!».

«هذا ما نعنيه بكوننا مسلمين. أن نكون بسطاء، مفتوحي الصدور لجيراننا. ليحفظنا الله على سواء السبيل».

أما جرجي ميسا، الذي اعتاد بلاغة دينج، فقد ظل حذراً، يرمقه بطرف عينه.

حين تفرق من كانوا في المسجد، أجاب دينج بمراوغة عن أسئلة ميسا. ولهذا ظل هذا حتى وقت متأخر من المساء يراقب بيت دينج: من يدري، ربما تسلّم الحوالة، وجاءه الرز ليلاً. كانت ساعات طويلة مزعجة من الانتظار الخائب.

في اليوم التالي، كان يشعر بالخفة الغامرة للبسطاء المفعمين أملاً، فقام بجولة على جيرانه، مدركاً وضعه كإنسان في مجموعة. الجميع تعاطفوا معه، وقدموا له كلمات السلوان. وكان في كل مرة يردد: «يحتاج المرء إلى ما يكفي لإطعام عائلته، وحين يجد الجميع ما يأكلون، يحل السلام في قلوب الناس، في كل مكان».

وضع يده عدة مرات في جيبه، متحسساً بأصابعه الرسالة الموجهة إلى عبدو. كانت مجعدة. وفكر: «سيعطيني مبايي مظروفاً آخر». حين عاد إلى بيته نادى:

● ميتي، هل رأيت رسالة عبدو؟

ـ لا. ربما رأتها آرام.

ـ انا؟ لم أرها أيضاً. ابحث بين أوراقك.

دمدم:

● لا تستطيعان العثور على أي شيء في هذا البيت. لكني تركتها هنا، بالتأكيد.

وجد الرسالة في أحد جيوبه.

بعد انتهاء صلاة العصر ذهب إلى منزل مبايي. حيّته تيريزا: هالو، يا عم. زوجي خارج المنزل.

● ألم يترك لي رسالة؟

أجابت وهي تربت على خصلة متمردة من شعرها الاصطناعي لتردها في موضعها: بلى. كنت أنتظر سيارة، لأوصلها إلى بيتك. هناك كيس رز لك، وصلنا الظهر.

قال بعد توقف طويل:

● أظن أن هناك خطأ.

ـ لا. لا يا عم. لم أخطىء. مبايي ترك لي ملاحظة مكتوبة. ذلك السائق اللعين لا يأتي في وقته أبداً. لندخل.

● متى يعود؟

استفسر دينج وهو يجلس في ذات المكان الذي احتله في اليوم السابق.

ـ يا عم. إنه لم يقل شيئاً. لقد ذهب إلى كاولاك.

● قد يعود هذا المساء؟

ـ لا أدري يا عم. لكني سأذهب وأسأل شريكتي. (عادت بعد لحظة) حتى هي لا تدري.

● سأمرّ ثانية.

ونهض دينج، مثقل الكاهل بالاستياء.

ـ ألا تأخذ الرز يا عم؟

● سأنتظر عودته.

في الخارج، كانت أفكاره مشوشة. حتى وقت متأخر من الليل، كان

يسير جيئة وذهابا بين بيته وبيت مبايي. وفي كل مرة يزداد غضبه واستياؤه. في منزله لم تسأله أي من زوجتيه. كان كل شيء في تصرفه يفضح غضبه.

في الصباح التالي، ذهب ليؤدي تسبيحه أمام الدارة. وفي حوالي الساعة الثامنة، مثل الخادمة، دخل حجرة الجلوس. طلبت منه الزوجة الأولى أن ينتظر. كان جبينها معفراً بحلقة من الرمل، إذ كانت قد أدت صلاتها للتو. في أقل من نصف ساعة جاء مبايي، مرتديا ملابسه، وحقيبة أوراقه بيده.

ـ قالوا إنك جئت أمس. آسف. كنت أمس في كاولاك.

● أعرف أنك مشغول.

منحه حضور مبايي ثقة متجددة، وعاد إليه تفاؤله. وتلاشت كل أفكار الليل الغاضبة كفقاعات الصابون.

ـ أنت لم تأخذ كيس الرز.

جاءت الخادمة لتقدم الفطور.

قال لها مبايي: «اسرعي. احضري الزبدة التي في الورق. زبدة الصحن انتهت. يا عم. هل لك في قهوة؟».

● لا. وشكراً. أفضل الكنكليبا.

ـ اختصاراً، لا أعرف كيف أخبرك. أنت عمي. بالنسبة للرز، كنت مارا بصاحبي السوري، وبما أن لديه رزاً، فقد اشتريت لك شيئاً منه. كنت أفكر بالخلاف بينك وبين مبارك. لا أدري له سبباً.

● على أي حال. كنت محقاً. لم أستطع أن أشرح ذلك كله للنساء. أنت تعرفهن.

تكلم مبايي ببطء، كي يتأكد من أنه مفهوم:

ـ الواقع أنني تسلمت الحوالة أمس. وكان لدي شغل في كاولاك يجب أن

أتابعه شخصياً. حين وصلت إلى هناك أوقفت سيارتي مقابل السوق. أنت تعرف كاولاك. بلدة لصوص! تركت السيارة وقطعت السوق. اشتريت حاجة أو أخرى، وحين أردت أن أدفع بحثت عن حافظة نقودي، فلم أجدها. لقد سرقت! لم يكن فيها فقط الخمسة والعشرون ألف فرنك العائدة لك، وإنما ستون ألف فرنك أخرى أيضاً».

● ولكن...

بدأ دينج. ولم يستطع أن يستمر.
غمس مبايي الخبز في القهوة.

ـ الأمر كما أخبرتك.
التقت عيونهما.

يبدو أنك لا تصدقني يا عم. لكني أقول الحق. كل الحق. وأقسم باسم الله. في آخر الشهر أردّ لك المبلغ. أنا ضحية عطفي».

● لا. لا. يا ولدي. أنا رب عائلة. ولمدة عام وأنا بلا عمل. كما أن تلك النقود ليست لي.

ـ «تظن أني خدعتك؟ لا. إن ميتي قريبتي، ولهذا أردت أن أساعدك.

(صعق دينج، ولم يعرف ما يصنع، حتى ذهنياً كما اعتاد. ظل يفتح يديه ويغلقهما ميكانيكياً. لم يجد ما يقوله).

اسمع يا عم. هذه حافظة نقودي، وفيها خمسة آلاف فرنك. خذها. خذها. نعم. أعرف أن الحوالة ليست لك. سأوصل لك كيس الرز. لو لم أكن أعرفك لقلت أنك لا تؤمن بالله. في نهاية الشهر أردّ لك الباقي. وفي الوقت نفسه، لا تتردد في المجيء إليّ إذا احتجت إلى شيء».

نادى مبايي الخادم وقال: كيس الرز الذي في الغرفة المجاورة، ضعه في السيارة. تعال، يا عم.

كان دينج مهشما. الغضب والاستياء سلباه إرادة الفعل. وكأن خيبة أمله العنيفة قد دمرت دماغه. مهما يكن، فقد تبع مبايي خارج المنزل. رأى رجلين يحملان الكيس.

قال دينج: ليس كيس ١٠٠ كيلو. إنه كيس خمسين كيلو. رد مبايي مقاطعاً، ومريتاً على كتف دينج. نعم: هذا كل ما استطعت الحصول عليه.

أنزلته الـ ٤٠٣ أمام منزله. وبمساعدة مبايي أنزل الكيس. وقبل أن ينطلق مبايي عائداً، وعد دينج وعداً مشدداً.

كيس الرز ذو الخمسين كيلو، جنب الباب. الزوجات الملآت يوجهن نظرات جشعة نحوه. إحداهن وقد استجمعت شجاعتها، اتجهت إلى دينج.

ـ أهو رز يا إبراهيم؟

● نعم.

ـ رز حقاً؟ آه لو كان لي بعضه!

● تريدين شيئاً منه؟

ـ نعم، يا دينج.

● ضعي إناءك.

ملأ إناءها. الأخريات وضعن أوانيهن. بدأ دينج بدون أي كلام يوزع الرز. في أقل من ثلاثين ثانية، ربما في دقيقة، انتشر النبأ وذاع.

«إبراهيم دينج يوزع الرز».

جاءت ميتي وآرام راكضتين. أبعدن الأذرع الممدودة. هتفت ميتي: أأنت مريض يا إبراهيم؟

● كنت مريضاً.

استطاعت الزوجتان أن تسحبا كيس الرز، بينما كانت النـ . الأخريات يمطرنها بالشتائم.

● أنا لست مجنوناً!

- إبراهيم، لمَ هذا التصرف الأحمق؟ متى رأيت منذ بداية الكون، فقـ ا يرمي الرز؟ حتى الأغنياء لا يفعلون ذلك. وأنت...

قاطعها دينج جالساً ورأسه بين يديه:

● إنه مبايي، قريبك...

- مبايي، يا عزيزي؟

● نعم، مبايي العزيز! فوّضته، وسرق الحوالة. وبدلاً منها أعطاني نصف كيس رز، وخمسة آلاف فرنك.

- ماذا؟ الحوالة؟

- واقراطي؟

● آرام. أنت أنانية دائماً. اتركي التفكير بنفسك. أتعرفين كم خسرت على حساب تلك الحوالة؟

- وماذا عن كل ما اقترضته؟

● كل ما اقترضنه يا ميتي؟

- الخمسة عشر كيلو من الرز انتهت منذ زمن.

● لم تكن الحوالة لي.

- يا أهل البيت، أأنتم بخير؟

- بخير؟ باه!

بحث ساعي البريد في رزمة الرسائل التي بيده.

- إبراهيم دينج، ماذا يجري؟ في الشارع المجاور سمعت أنك توزع الرز...

أخبره دينج بالأمر. رفع باه طرف قلنسوته وقال: كان ما فعلته من اعمال اليأس.

● انتهى الأمر... أنا أيضاً سألبس جلد ذئب

- لماذا؟

● لماذا؟ لأن الغش والكذب وحدهما هما الحقيقة. الصدق جريمة في هذه الأيام.

سلّمه باه رسالة، وقال:

- إنها من باريس. عليها ختم البريد. انظر. كل شخص فاسداً؟ لا. حتى أولئك الذين يشتغلون ليسوا سعداء. الأمور ستتغير.

● من يغيرها؟ أنا منذ عام عاطل عن العمل لأني اشتركت في إضراب. لدي زوجتان وتسعة أبناء الغش وحده ينفع.

- غداً، سنغير هذا كله.

● من نحن؟

- أنت.

● أنا؟

- أجل، أنت، يا إبراهيم دينج.

● أنا؟

دخلت امرأة، تحمل طفلاً على ظهرها، وقاطعت دينج بتحياتها.

«يا سيد هذا البيت، أتوسل إليك، لوجه الله، أن تساعدني. لثلاثة أيام لم آكل أنا وأطفالي إلا مرة واحدة في اليوم. أبوهم عاطل عن العمل منذ خمس سنين. أخبروني في الشارع أنك رؤوف كريم».

عدّل دينج من هيأته. التقت عيناه بعيني باه. نظرت المرأة السائلة إلى الرجلين.

لم ينطق أحد بكلمة.

ذاكرة الشعوب

المحرر: الياس خوري

صدر منها:

١ـ فرديناند أيونو:	الصبي الخادم	كاميرون
٢ـ كين كيسي:	طيران فوق عش الوقواق	الولايات المتحدة
٣ـ جاك رومان:	سادة الندى	هاييتي
٤ـ ب. ترافن:	انتفاضة المشانق	المكسيك
٥ـ غينوا اتشيبي:	الأشياء تتداعى	أفريقيا
٦ـ كامارا لاي:	الولد الأسود	غينيا
٧ـ كمالا ماركانداياً:	رحيق في غربال	الهند
٨ـ بيتر أبراهامز:	فتى المنجم	أفريقيا الجنوبية
٩ـ أريش ماريا ريمارك:	ثلاثة رفاق	المانيا
١٠ـ غابرييل أوكارا:	الصوت	أفريقيا
١١ـ رجيس دوبريه:	غير المرغوب فيه	فرنسا
١٢ـ عبداللطيف اللعبي:	مجنون الأمل	المغرب
١٣ـ أريش ماريا ريمارك:	ليلة لشبونة	المانيا
١٤ـ كارلوس فوانتس:	موت أرتيميو كروز	المكسيك
١٥ـ غينوا اتشيبي:	مضى عهد الراحة	نيجيريا
١٦ـ جورج لمنغ:	في قلعة جلدي	الكاريبي
١٧ـ استورياس:	السيد الرئيس	غواتيمالا
١٨ـ دوميتيلا دوشنغارا:	دعوني أتكلم	بوليفيا
١٩ـ صنبين عثمان:	الحواله	السنغال
٢٠ـ الكسندرا كولنتاي:	حب عاملة النحل	الاتحاد السوفياتي

رواية من السّنغال

الحوالة

صنبين عثمان، روائي ومخرج سينمائي سنغالي، بدأ حياته كصياد سمك، ومارس في داكار أعمالاً شاقة، واشتغل عاملاً في ميناء مرسيليا، وخاض نضالات أوصلته الى أن يغدو نقابياً، وقد ألهمته هذه التجربة روايته «عامل الميناء الأسود» (١٩٥٦). أخرج عدة أفلام من بينها فيلم «الحوالة» و«كسالا». كما نشر مجموعة من الروايات الهامة.

«الحوالة» هي أقرب الى شريط روائي منها إلى رواية. إنها تروي سيرة مجتمع أفريقي يعاني مشكلات ما بعد الاستقلال. الفقر والجوع من جهة والجهل والاستغلال من جهة أخرى. كأن الحوالة التي تصل من فرنسا تصبح مناسبة لرسم صورة البؤس الممزوج بالاستغلال والجهل. الرواية ترسم الملامح العامة لهذا البؤس، كأنها خيط روائي يرتسم حول إبراهيم دينج في معاناته التي لا تنتهي وهو يكتشف واقعه وسط عالم فاسد.

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ١٣-٥٠٥٧ (شوران) بيروت-لبنان